حازم صاغية

صراع الاسلام والبترول في ايران



دار الطليعة - بيروت

هذا الكتاب

تحتل ايران مكانها اليوم في رأس جدول الأ
اليومي للثورة في العالم الثالث . ولكن تصاع
الثوري الايراني يرتدي اهمية اعظم ايضا بالن
العرب . فبين العرب وايران علاقات ، تضافر التاريخ والجغرافية والسياسة والمصالح والدين لجعلها علاقات في غاية الحساسية . وقد كانت هذه العلاقات محكومة بتناقضين : الاول هو ان الموقع السياسي لايران الرسمية كان على الدوام موقعا مضادا لحركة التحرر العربية ، والثاني ان موقع الجماهير الايرانية وقياداتها السياسية والدينية كان على الدوام في الموقع السياسي لحركة التحرر العربية .

وهذا الكتاب يرسم بصورة مفصلة وعيانية لما كانته ايران في عهد الحكم الشاهنشاهي ، ولما ستكونه بعد الثورة .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٦٧٥ ق. ل.
أو ما يعادلها

حازم صاغيّة

صراع الإسلام والبترول في إيران

دار الطّليعة للطّباعة والنشر
بيروت

ص.ب ١١١٨١٣
بيروت ــ لبنان

الطبعة الاولى
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨

تقديم

نشرت هذه المقالات في جريدة «السفير» البيروتية ، وواحدة منها في مجلة «شؤون فلسطينية» ، وبفعل طبيعتها الصحفية كان لا بد من بعض النواقص شأن المرور السريع على احد جوانب الموضوع لصالح الاحاطة العامة بالجوانب الاخرى ضمن حيز محدود في النهاية .

كذلك كان الامر لجهة عدم اثبات المرجع بموازاة نص الاستشهاد ، وهذا ما حاولت ان أتلافاه جزئيا بإثبات لائحة بالمراجع الاساسية في آخر الكتاب .

وأملى التصاعد الملتهب في حركة الوضع الثوري الايراني الاسراع بارسال هذه المقالات الى المطبعة بعجرها وبجرها ، وكل طموحها أن تساهم بسد ثغرة صغيرة في الاحاطة بما يجري داخل ايران وعلاقة ذلك بما قد يجري في نطاق الامة العربية.

ان ايران التي تشكل امتدادا طبيعيا للوطن العربي وجزءا فاعلا وأساسيا من العالم الاسلامي الذي ينتمي اليه العرب ،

تطرح اليوم علينا كقوميين جذريين تحديا عظيما على المستويين السياسي والثقافي ، وهذه المقالات تقدم نفسها من هذا الموقع، موقع الوقوف على أرضية الثورة الايرانية .

تشرين الثاني ١٩٧٨

الفصل الأول

الجذور الدينية للمشكلة (*)

ها هو الشاه يستيقظ على ضوضاء وصخب ، فقد راهن على الغرب والتغريب يوصل اليهما جسر من النفط ، واعدم الحقائق الوطنية ، والغى ان تكون هناك فعالية تذكر لتراث لا زال ارتباطه بالواقع كبيرا .

ان ايران اليوم تشهد صراع العنصرين الاكثر فعلا وتأثيرا في حياتها ، وحياة الشعوب العربية ايضا (الاسلام والبترول) .

لقد ادت «صدمة اوروبا» الى استنهاض التعارض الكبير بين

---

* نشرت في «السفير» في ١٨-٩-١٩٧٨ .

الحفاظ على الذات ، تحت علم الدين، في وجه الابادة السياسية والثقافية ، واحيانا الفيزيائية ، وبين الالتحاق بالغرب تحت علم البترول ، دون اي طموح ذاتي ، او بالقليل منه .

وبقدر ما كان الاسلام تعبيرا عن الذات بكل ما فيها من «حسنات وسيئات» ، كانت العلاقات البترولية تعبيرا عن الحالة الاستعمارية التي اتخذت قبل ذاك صياغات عدة للتبعية ، تشارك فيها نخب محلية تواقة لاحلال «قوميات» متغربة او «علمانيات» طامحة لإكمال الغزو من الداخل .

وبصيرورة البترول عمود الاقتصاد الفقري ، يقابله تثبيت علاقات النهب بقوة العنف ، قويت الرغبة في «الخطيئة» عند تلك النخب والاسر الحاكمة .

ضمن هذه العلة الاصلية عرفت ايران مفارقة مهمة ، هي انها من جهة دولة لم تنقطع سيادتها ومن جهة اخرى دولة لم تنقطع تبعيتها .

فقد بدت ايران في ظاهر الامر مهملة من الاستعمار وخارج ذاكرته ، بدلالة انها لم تخضع مرة من المرات لاستعمار يطالها من شمالها الى جنوبها ، بل عرفت بين فترة واخرى اقتطاعا يطال جزءا من ارضها او احتلالا مؤقتا لجزء آخر ، وهذا في حدوده العامة قاسم مشترك بينها وبين بلدان عديدة كاليابان وتركيا والسعودية والحبشة .

ولكن اذا بدا «التاريخ في ظاهره» شاهدا على حكم لم ينقطع مدة ٢٥ قرنا كما يتغنى الشاه ، ف «التاريخ في باطنه» يقول ان سيادة ايران كانت دائما «سيادة تحت المراقبة» حسب تسمية غي دي بوشير .

هذه المفارقة سمحت للشاه بأن يتغنى بالماضي ، لكنها كانت دائما تكشف كاريكاتورية هذا التغني ، وتشير باصبع الاتهام الى دور الغرب الثابت .

فوقوع ايران في الفناء الخلفي لروسيا ، وفي الوقت نفسه شمال الخليج الذي اهتمت به بريطانيا مبكرا ، جعلها في موقع ثمين مهم ، خصوصا بعد حملة نابوليون على مصر التي دب لها انهلع في قلب بريطانيا خوفا من الاستيلاء الفرنسي على طريق الهند .

ان مذكرات ونستون تشرشل لا تترك زيادة لمستزيد حول تلك الاهمية ، وحول ضرورات التوصل الى مساومات بريطانية روسية تنظم وضع ايران الدولي .

تحت مناخ هذا التأثير اندرجت «انظمة» ايران الضعيفة والمفتعلة في المشروع الاستعماري لتفكيك السلطنة العثمانية ، ومنذ القرن التاسع عشر نشأت صلات وروابط بين سلطات فارس ومشاريع الانتفاضات بقيادة الاقطاع الكردي .

لكن الجوف كان قد خضع لتفريغ عميق . ففي ١٨٢٨ ، وقبل نصف قرن على بداية الامبريالية المعاصرة ، تلقت تركيا هزيمة على يد روسيا ، اجبرت بعدها على توقيع معاهدة تركمانشاي التي استدعت حرمانها من بحر قزوين وانفتاحها على الامتيازات التجارية لروسيا التي عرفت مثيلتها السلطنة العثمانية .

وكانت السياسة البريطانية توالي صعودها ک «واقعة دموية تؤكد خلود الشر» كما وصف كارل ماركس سياسة لندن في طهران آنذاك . وقبل ان ينتهي القرن التاسع عشر ، وتحت ضغط هجوم السلع ، بدأ العجز يدب في ميزانية فارس ، فكانت القروض الاجنبية تتكفل بالتغطية شكلا وبمفاقمة العجز فعلا ، كما حدث في مصر .

وكم هي دالة ومعبرة اشارة احد المؤرخين الى ان الشاه نصر الدين «الذي نجح في المحافظة على عرشه لمدة ٤٨ سنة ، جلب كوارث اقتصادية على البلاد ، خصوصا بعد ان اكتشف العالم الجديد (اوروبا) كمكان ممتع للزيارة» .

وكاستجارة «من الرمضاء بالنار» استدان شاه آخر هو مظفر الدين ٢٢،٥ مليون روبل من روسيا عام ١٩٠٠ بفائدة ٥ بالمئة ، ثم استدان من المصدر نفسه ١٠ ملايين ، وبعد اربع سنوات ستة ملايين وهكذا دواليك ، فيما اصبح كل ما في البلاد نهبا للسوق الخارجية ، واذ بحاكم كرمنشاه ، على سبيل المثال لا الحصر ، يصادر جميع الاغنام في مقاطعته ويصدرها غير آبه بمجاعة كانت تعصف في المقاطعة التي يحكم .

ويروي هرشلاغ كيف :

«فرض نظام الامتيازات الاجنبية على فارس كما فرض على تركيا وعلى مصر وتبعا لذلك لم يكن ممكنا رفع الرسوم الجمركية او فرض ضريبة شراء على الانتاج الاجنبي في داخل البلاد دون موافقة الدول ، مما حد من القدرة التنافسية للانتاج المحلي .

فقد كانت عقود الامتياز لمعظم فروع الاقتصاد الرئيسية تمنح للاجانب فأفرزت صراعا اقتصاديا وسياسيا مستمرا بين فارس وبين اصحاب عقود الامتياز وأرصدة الديون . لقد كانت الضريبة على الملح المنتج محليا ٧،٥ دولارات عن كل ٥٠٠ رطل ، بينما كانت الرسوم الجمركية على الملح المستورد ٩،٠ دولارا معفاة من اي رسوم اخرى» .

وفي ١٩٠١ حصلت القفزة النوعية اذ نال وليم دارسي امتيازه الشهير لاستخراج البترول ، وهو امتياز معفى من الضرائب .

وأخذ تدجين فارس أشكالا اخرى ، فاذا كان توازن القوى في فترة ما لصالح روسيا ، قامت هذه الاخيرة بمنع فارس من منح عقود او اخذ قروض من غير روسيا ، واذا مال التوازن لصالح انكلترا لعبت انكلترا دور السيد الاقتصادي الكامل ، وعند تعادل التوازن تقتسم مهام السيادة وتبقى التبعية حكرا على فارس .

وبدأ «الاجانب» ينظمون الجيش في ايران . ففي ١٨٨٢ وكان عهد نصر الدين آنذاك ، شكلت كتيبة قوزاقية يقودها ضباط روس .

وعلى المستوى الثقافي كانت الصدمة موجعة ايضا . ففي عام ١٨٢٩ بدأت البعثات البروتستنتينية نشاطها في شمال غربي ايران ، فأنشأت مدرسة تعلم الانكليزية والدين المسيحي اقبلت عليها بقايا الاشوريين ، ثم سافر معظم خريجيها الى الولايات المتحدة واستوطنوا شيكاغو حيث يعيش الان ما يربو على ستين الفا من أحفادهم .

وامتدت الارساليات الى المدن الكبرى كطهران وتبريز محاولة تحويل المسلمين عن دينهم بحجة ان الاسلام هو بروتستنتينية مضادة ، فالاول يحفز على البلادة الشرقية والتخلف عن «العصر» فيما الثانية تكتنه أخلاق التقدم والتطور.

وفي ١٨٥٢ انشئت اول جامعة في طهران ، وكانت اوروبية تؤسس للأوربة ، ولانتاج واعادة انتاج ثقافة تُهيأ لان تسود ورجال يهيأون لان يحكموا ، وفي السياق نفسه ترجمت روايات «الكونت مونت كريستو» و«الفرسان الثلاثة» وغيرها من بشائر البطل الاوروبي الذي يلهم العصر الجديد ، ويهدي بلدا مسلما متشبعا بشيعيته منذ عهد الدولة الصفوية .

مذّاك والرفض الشعبي يوجه كل اسنانه الى غرب يعتدي على الحقلين المادي والروحي ، مع استعداد واسع للغرق في ماضوية تراثية وطنية تصل احيانا الى حد «البدائية» الاجتماعية التي كثيرا ما استهجنها المستشرقون وأتباعهم .

ويروي عبد الله النفيسي كيف وقف رجال الدين الشيعة ، وغالبيتهم ايرانيون ، عام ١٩١٤ «عندما ترامى خبر احتلال الانكليز لميناء البصرة» بالعراق :

«تناست الشيعة ، آنذاك ، ما كان قد لقيته من ظلم وجور على يد الاتراك ، وأصدر المجتهد الاكبر فتوى بضرورة مساندة

الاتراك ومعاضدة السلطنة العثمانية ، كما اعلن الجهاد» .

ان الحماس الغنائي لحل التناقض مع الغرب يجرف كل التناقضات الثانوية . فوراء واجهة السكوت على الصدمة الاوروبية ، كانت تعتمل ردة الاحياء والقرى والحوانيت والحرف التي تتجاوز قواها وركائزها الاجتماعية ، وينهض نمط من التضامن الاخوي الموروث عن نظام الحرف وتنظيمات الاحياء في طور الاكتواء بعصبية القهر ، وهو على اية حال نمط لا زال مستمرا في الهبة الدينية الراهنة .

ورغم سلاسة الانظمة المتعاقبة في تعاطيها مع الغرب ، بقيت الاستجابة قاصرة عن موجبات عصر الامبريالية ، ففي تلك الانظمة قدر من الاستبدادية الآسيوية الفجة التي يجب تليينها وفرض مطواعية «العصر» عليها .

فمنذ ١٨٤٠ حين قامت الحركة البابية «الاصلاحية» على يد ميرزا علي محمد ، حتى ١٩٠٥ ــ ١٩٠٦ تاريخ قيام «الثورة الدستورية» او المشروطية كما سميت في فارس ، كان الدور «الاصلاحي» لبريطانيا دامغا ومشبوها .

هناك بالتأكيد جانب ايجابي في «الثورة الدستورية» من حيث تأثرها بمناخ خلقته ثورة البوكسرز في الصين وانتصار اليابان (الآسيوية) على روسيا (الاوروبية) عام ١٩٠٤ ، وثورة ١٩٠٥ في روسيا ، والنضالات الوطنية التي كانت تخاض في مصر .

كذلك فطابعها الشعبي كان اوسع من الذي حكم ثورة١٨٧٦ التركية بقيادة بيروقراطية شديدة الالتصاق بالنظام التاريخي .

على ان البورجوازية حين تقود الشعب في العوالم المتخلفة، فانها تقوده ضمن توازن امبريالي تخضع له هذه البورجوازية نفسها ، وهكذا فممهدات الطرح الدستوري عبرت عن ذاتها بدءا من عام ١٨٩١ عبر صحيفة «القانون» التي اصدرتها في

لندن هيئة تحرير ارمنية تذكر بصحف المهاجرين المسيحيين السوريين في مصر وفرنسا ، وظل المنفيون في اوروبا ، واغلبهم من الاقليات ، يشكلون قيادة روحية على قاعدة طرح يقول بملكية دستورية وقدر واسع من الاستقلالية لزعامات المناطق على حساب السلطة المركزية .

ورغم اشتراك قطاع واسع من رجال الدين وجماهير الاحياء في الثورة ، فقد تضمنت «الدستورية» او «المشروطية» تحفظا مبدئيا تجاه الاسلام وجد افضل تعبيراته عند احمد كزرافي (١٨٩٠ ـ ١٩٤٦) احد كبار الدستوريين الداعين الى سلوك التطور الغربي والعودة الى الزرادشتية .

لقد بدا البريطانيون شديدي الحماس للمشروطية ، وظهر مثل هذا الحماس على وجه كبار التجار التائقين الى إحداث تغييرات اقتصادية تسهل الانخراط «الطبيعي» في العلاقات الراسمالية .

وتعرقل التنفيذ بنتيجة اعتراض الروس من موقع التنافس مع بريطانيا ، وزحف العقيد القوزاقي لياشوف على جنوب ايران ، مما أدى الى تقسيم ايران عام ١٩٠٧ الى منطقتي نفوذ بريطانية وروسية ، وبينهما منطقة «محايدة» ايرانية !.

وعلى اساس المساومةالمدعومة من الولايات المتحدة(١)، وفي ظل اغتياب للضعف القيصري المتنامي ، استكملت الثورة الدستورية بصيغتها الغربية ، فجيء عام ١٩١١ بمورغان شوستر ليكون المستشار المالي الاميركي عند حكومة فارس ، تلاه مستشار اميركي آخر هو ميلسبورغ الذي أشرف بين ١٩٢٢ و١٩٢٧ على مالية تركيا ايضا ، وعمل ميلسبورغ هذا على راس هيئة موظفين من الاميركان والبريطانيين .

---

١ ـ و«استشهد» مدرس اميركي بروتستنتي من اجل الثورة !!

وأدت «اصلاحات» شوستر وميلسبورغ الى تسهيل تغلغل الرساميل وجعل بنية الاقتصاد الايراني قادرة على استقبالها ، فيما كانت بريطانيا تدفع ب «الاصلاحات الدستورية» الاخرى الهادفة لتطويع البنية السياسية .

وعلى يد المستشارين نقلت السلطة المالية الى وزارة خاصة بالشؤون المالية ، وبين ١٩٢٧ و١٩٣٩ بوشر ببناء مواصلات تستجيب لاقتصاد السوق والاغراض العسكرية ، اهمها بناء «الخط الحديدي عبر ايران» من بندر شاه لبندر شهبور ، والذي نزع الكثير من الاهمية عن نقاط كانت مهمة واكسب الاهمية لنقاط كانت عطالة اقتصادية .

واستمر تقليد الاتيان بمستشارين اقتصاديين ، فجاء رضا شاه بعد تقاربه مع المانيا باخصائي الماني للشؤون المالية !

قبل ١٩٢١ كانت الاستراتيجيات الغربية تجتمع على تفتيت ايران وتدعيم سلطة الاقطاعيين في الاطراف على حساب السلطة المركزية ، لكن هوس مواجهة البلشفية بعد اوكتوبر ١٩١٧ ، قاد الى قناعة جديدة هي ان تتوحد ايران تحت سلطة «قومية» وقسرية موالية للغرب وللبريطانيين تحديدا .

ولعب النفط دورا متزايدا فيان يكون الاسمنت الاقتصادي لبناء هذه الدولة الطغيانية خصوصا بعد ١٩٣٣ حيث وقعت المعاهدة الشهيرة مع الشركة الانجلو ايرانية .

لقد ذهبت سلالة الكاجار التركية التي اهترأت ، وجاءت سلالة بهلوي تستمد اسمها من التاريخ العلي لفارس القديمة ، وتفرض توحيدا قسريا ، وتدخل الى المجتمع القديم «دولة» مستقدمة من اوروبا مع كل التزييف الذي يلحق بالواردات الاوروبية في الشرق .

هنا مثل صراع الفارسية المتفوقة مع الاسلامية التي تتسع للجميع حالة شبيهة بما عرفته مصر في وقت لاحق ، من صراع

بين الفرعونية والعروبة .

وكان التعالي على باقي المسلمين باسم «الدولة الحديثة» والفارسية المتفوقة يتوازى مع اختراق امبريالي مد فروعه في كل الاتجاهات ولم يترك في ايران شيئا يستحيل النفاذ اليه .

ونشأت المحاولات الرسمية لربط «الشيعية» بديانات فارس القديمة ، وخصوصا الزرادشتية التي كانت الدين السائد منذ القرن السادس ق.م. حتى القرن السابع م. .

وفي درجة ادنى عمل رضا شاه على تقديم الشيعية كزرادشتية مؤسلمة ، وتمسك بتقويمها على حساب التقويم الهجري .

اذن انقسم ذلك التأليف الحضاري وبدأ صراع غير معلن حتى على مستوى الاسماء : بين «مشهد» المزار الشيعي و«نيسابور» الحاضرة القديمة ، وبين «المحمرة» العربية و«خور رمشاهر» الفارسية .

وتضررت المؤسسة الدينية بأشكال اكثر تفصيلية من هذا الدخول الغربي المغلف بقشرة من حداثة ، حيث تكرر ما عرفته تركيا من خلافات بدت في ظاهرها خلافات بين السلطات والعلماء .

فقد حاول رضا شاه ان يحد من الدور الذي يلعبه الدين ، فأقام التشريع على أسس مدنية ، واستصدر قانونا يمكن بمقتضاه تأميم الاراضي ومشروعات الري المملوكة لمؤسسات دينية ، وقمع القبائل بوصفها تحمل مشاريع انفصالية وتعرقل «الوحدة والتقدم» .

وفي ١٩٢٨ نشر رضا شاه القانون المدني والقانون التجاري، وبدأ المندوبون الحكوميون يراقبون المدارس الدينية لضبط عملية الفصل بين التدريس الديني والخدمة العسكرية ، وبدأ المشايخ يتذمرون من انهم «يربون الطالب حتى اذا صار في محل الثمرة ، نزع العمامة ولباس اهل العلم ، ولبس لباس اهل

الحكم ، ودخل في احدى الادارات» .

وعينت الحكومة اجهزة خاصة لادارة الجوامع والاماكن الدينية وتنظيم انتقال الذاهبين الى الحج في مكة وغير ذلك ، كما وفتحت شوارع في مقبرة رجال الدين في مدينة قم الدينية «فلم تهتم لامر المقبرة بل سعت لمحو آثارها» .

وتولى رضا شاه حصر انفاق الاوقاف الدينية وقرر شكل صرفها ، وفي عهده صار جندي من الدرك «يصعد السطح وينفخ ببوقه (البارازان) عند وقت الصلاة بدل الآذان» وبات يقف شرطيان على باب كل مسجد بهدف احلال «النظام» ومنع زحام الناس لدى الخروج .

وقد سجل احد رجال الدين في مذكراته ان «خدام الحضرة الشريفية الرضوية كلهم او جلهم يلبسون العمائم قبل تملك البهلوي ، فلما تملك الزمهم بلبس القبعة البهلوية واللباس الافرنجي الا قليلا منهم ..» .

هذه الاتاتوركية الفارسية ترافقت مع دعوى تفوق قادت لتهميش غالبية السكان (٦٠ بالمئة من شعوب ايران) ، وأخرجتهم من تاريخ موحد كسرت الامبريالية وحدته وأظهرت فيه التفاوتات ، فيما بقي تاريخ الاسلام مدى للوحدة والتكافؤ .

وفي هذا يتميز العرب على الايرانيين . فالعرب قاتلوا الاستعمار بشعار الوحدة العربية المتصالح مع الاسلام ، رغم المحاولات الاولى التي عرفتها نهاية القرن الماضي وبدايات هذا القرن والتي تمحورت حول عروبة علمانية .

اما الايرانيون الذين يحكم بينهم تفاوت قومي ، فقد وجدوا في الاسلام المنقى من اية قومية ، ضالة لهم وتعبيرا عن رفضهم لدولة قسرية مستوردة .

وزاد من ابتعادهم عن «الدولة» وارتمائهم في الدين ، ان الدولة التي نشأت بطبيعتها الاستبدادية وجوهرها الآسيوي

(رغم الطلاء الاوروبي) لم تعطهم شيئا سوى القمع ان في عهد رضا او في عهد ابنه محمد ، فيما اعطاهم الدين كل الوعود .

حقا لقد هرب مسلمو ايران من وحدة قسرية فيها المتفوق والمهزوم ، لكنهم تقدموا في اتجاه ديني جعله انفصاله عن القومية ذا طابع كوني (بعكس الاسلام العربي الذي غالبا ما دمج في العروبة او دمجت العروبة فيه) .

هذه ربما كانت حالة معظم المسلمين غير العرب . فالوحدة الاسلامية تعني في الوعي الايديولوجي التركي استعادة لطاقة كبيرة فصلت عن جسم السلطنة ، اما مسلمو الهند والباكستان وبنغلادش فيبدون كأنهم لا زالوا في طور البحث عن «دولة مقنعة » .

على اية حال ، ففي مقابل الوطنية الفارسية المتصلة بالدولة، والمحصنة بالبترول والعلاقات مع الغرب ، والمنطوية على حالة من التفوق نحو باقي المسلمين ، تطرح الاسلامية الايرانية دعوة للتصالح مع الجيرة الواسعة دون ان تؤثر في ذلك شيعية الايرانيين (كونها شيعية لا تعيش هم المنافسة مع تحد سني لا تعرفه ايران) .

وهنا يظهر خلاف آخر بين العرب والايرانيين . ففي تاريخ العرب تمثلت المعارضة بالشيعة والموالاة بالسنَّة ، الى ان عملت الامبريالية على حرمان الجميع من السلطة والثروة ، فأصبح السنَّة شيعة في فكرهم الرافض ، وأصبح الشيعة سنَّة في تناحرهم مع «الغرباء» وحبهم الارض والوطن .

اما في ايران فالشيعة يمثلون الدورين معا ، دون اي انتقالات او تبدلات وظيفية كبيرة . فهم في مواجهة السلطة وفي مواجهة «الغرباء»، وهذا مضافا اليه تصالح مع جيران يمرون في تحرر وطني ، أكسب الشيعية الايرانية جاذبية تقدمية في الماضي والحاضر .

وزاد النهب في عهد الوريث بموازاة تدفق الثروة النفطية ، وزادت بالمقابل صفاقة التعاطي الامبريالي مع ايران التي لم تكن مرة جمهورية موز او دويلة نفط او اقتصادا أحاديا .

فايران يحق لها ان تفخر بثروة زراعية هائلة ، وثــــروة معدنية عظيمة : انها الثانية في انتاج الغاز الطبيعي بعد الاتحاد السوفياتي ، يستخرج يوميا من حقولها ٤٤٣ مليار متر مكعب منه حوالي ٢٤٣ مليار يحرق ويذهب هدرا . هذه الكمية تعني ان دخل ايران من الغاز الطبيعي في عام ١٩٨٥ يفتــرض ان يتجاوز دخلها من النفط .

لكن تقليد رضا المستمر مع ابنه محمد (فيالبداية) جعل ايران تعامل كجمهورية موز . ففي عام ١٩٤٩ انشىء اول مصرف في ايران ، وفي ١٩٥٤ ، اي بعد الاطاحة بمصدق ، فتح علـــى مصراعيه باب انشاء المصارف المختلطة لضخ أموال النفط ، وكان مدراء تلك المصارف من الاجانب ، اما الشركاء فإما مودعـــون صغار لا يؤثرون في قرار المصرف ، واما «شخصيات» سياسية تقدم الغطاء لاعمال مصرفية لا تكون طبيعتها قانونية .

هذا مع العلم بأن جملة تلك المصارف أنشئت ضمن مخالفات واضحة للقانون .

اما القروض فتقدم لرجال الاعمال بفائدة تتـــراوح بين ١٢ و١٨ بالمئة ، وهي قروض قصيرة الاجل تمول استيراد الكماليات، وتعود على شكل رساميل تستقر في الخارج .

وبعد الاطاحة بمصدق انشىء الكونسورتيوم الـــذي يغلب عليه رأس المال الاميركي ، وقدمت تسعة امتيازات نفطية جديدة لشركات معظمها اميركي ، بحيث بلغت مساحات عمل هـــذه الامتيازات ٣٠ الف ميل مربـــع ، فاذا اضفنـــا اليها ١٠٠ للكونسورتيوم كان المجموع ١٣٠ الفا من اصل ٥٣٠ الفا هـــي مساحة ايران .

بلغت أرباح الكونسورتيوم الصافية المصرح بها في ١٢ سنة ٣ مليارات دولار ، وبلغت «المعونات» الاجنبية لايران في الفترة نفسها ١،١ مليارا ، لكن معظم المعونات تدفـــع مع الفوائد ، بحيث يؤكد احد الاحصاءات ان ارباح الكونسورتيوم تبلـــغ ١٥ ضعف المعونات (١) .

سياسة التغريب والرسملة التي اتبعها الشاه ، الى ماذا أدت ؟

بنتيجة الاصلاح الزراعي امتلك ٢٠ بالمئة من الفلاحين ارضا، لكن ٤٠ بالمئة تحولوا من مالكين الى مستأجرين ، وزاد عـــدد سكان طهران ، واجهة العرض الرأسمالية ، من ١،٥ مليـــون عام ١٩٦٣ الى ٣،٣ مليون عام ١٩٧٣ ، ونشأ تركيز خاص على قطاع الخدمات .

هذا النزوح العميق من الارياف ، مصحوبا بخيبة الامل في المدينة ، زاد من صراع الثقافتين ودفع الانكفاء نحو الديـــن خطوات الى الامام ، فيما كان البازار (الحي التجاري الصغير) يتعرض للاجتثاث على يد الكومبرادور المدعوم من الشاه ، بشكل شحذ وعيه الديني وتمسكه بقيادات سابقة على هذه العلاقات «الرأسمالية» .

يصف مناضل ايراني هذا الوضع :

«ان الفلاحين المعدمين سيصبحون قوة كبرى تعمل لتقويض النظام في السنوات المقبلة لكن الطبقة الوسطى التقليدية فـــي البازار كانت احدى القوى الكبرى المهددة للسلالة الحالية ، وقد ظلت معارضتها متقدة دائما لان الشـــاه ساعد منافسيهـــا الاقتصاديين ، الرأسماليين الكبـــار والكومبرادوريين ، ولأن سياسته العلمانية اصطدمت بالحساسية الدينية التقليدية للطبقة

---

١ ــ يضاف الى ذلك عنصر «الاخلاق المسيحية» التي تغلف تقديم العون.

الوسطى ، ولانه فقد كل أسس الشرعية حين أسقط بطلهم الوطني مصدق ، ولأنه بعث امتيازات القرن التاسع عشر الاجنبية بمنحه الحصانة القانونية للضباط الاميركيين في مقابل اعانة بالسلاح ، ولانه اختار التحالف مع الصهيونية ضد كل الدول المسلمة في العالم العربي . وفي الوقت الراهن فان البازارات تعاني لان احزابها السياسية ممنوعة ، ولأن نقاباتها الحرفية خاضعة لرقابة صارمة ، ولان منابر مساجدها مراقبة بشدة ، لكن آراءها تستمر في التعبير بفعالية عبر عدد من القادة الدينيين المنفيين الذين يعيشون الان في العراق» .

ومع خراب صغار التجار تقلصت عائدات رجال الدين ، ومع تراجع البورجوازيتين الوسطى والصغرى على العموم ، نشأت ازمة وعي وأسئلة حائرة حول المرتكزات الاجتماعية للجامع ، خصوصا وان الشاه حاول وضع المؤسسة الدينية تحت سلطته ، وتيمنا بأبيه دفع باتجاه ضرب استقلالية رجال الدين وجعله سلكا من الموظفين المعتمدين ماليا على الدولة ، والمرتهنين سياسيا بقرارها ، كما فقد الانخراط في السلك الديني اية حرمة ، ولا عاد ينجي من الخدمة العسكرية غير المقنعة لدى عموم الايرانيين .

لقد نمت «الدولة» على حساب الدين !

الفصل الثاني

ثقافتان تتنازعان المجتمع (*)

ان ثقافة البهلوي العنصرية اختزلت الشعب وخلقت أبلغ درجة من التعارض مع كونية الحالة الدينية. فمن الزعم بفارسية الخليج المطلقة الى التباهي على العرب واعتبار باقي القوميات معرقلات لوحدة ايران ونبذ القبائل بالتهمة نفسها ، والتمسك بالملكية المطلقة ، والتوحيد بين الشاه والوطن ، وتقديم الخليط القومي لشعوب ايران كموضوع فولكلوري للفائدة السياحية يستجيب للتغريب السائد (صناعة السجاد الخ) .

(*) نشرت في السفير ١٩-٩-٧٨ .

كل ذلك دفع الشعب الـــى اعادة البحث عن ماضيه او اكتشاف لغة الماضي الذي يحكم الحاضر من وجهة نظره .

في كانون الثاني عام ١٩٧٥ اقفلت كل طهران بمناسبــة عاشوراء ، وكان قد قدم الى العاصمة عدد هائل من سكان باقي المدن والمناطق ، فتجمع هؤلاء وأدى التجمع الى التظاهر ، وكان المتظاهرون يهتفون ضد «نظام يزيد» ففهم البوليس ان الشاه هو المقصود بالايماءة ، وبدأ القمع .

ان الجماهير تحاكم الشاه من مخططها الديني للتاريخ ، كما يحاكمها هو على ضوء مخططه القومي المتغرب ، وبهذا المعنـــى يشكل «نزع الاستعمار عن التاريخ» وجها من وجوه المعركـــة ويفرض من هذا الموقع بعض السمات «البدائية» على الصراع .

كتب الشاه محمد رضا عن آراء ابيه :

«كان ابي معجبا بماضي فارس المجيد ، حريصا على صيانة ما لا يتعارض مع التقدم من تقاليدنا الموروثة ، ولكنه كان شديد الاقتناع بأن استقلال الارض وسيادة الامة ورفاه الشعب أمور لا سبيل لها الا بالتمثل العاجل بالغرب » .

هذا التمثل العاجل بالغرب استمر مع الشاه على نحـــو اوسع ، فتدفق الثروة النفطية قصر المسافــة بين الرغبـــة والتنفيذ .

وفي حين حافظت الجماهير على «ايديولوجيتها» الموروثة ، عملت السلطة الغنية على الغرق في تقنية الغرب وحضاريته .

لقد استطاعت ايديولوجية الاستهلاك ان توجد معادلاتهـــا الثقافية . فالتاريخ في البرامج المدرسية هو تاريخ اوروبـــا والجغرافية جغرافية اوروبا ، والجامعة سفينة لنقل الوعـــي الاوروبي ، والادب ممسوخ بهموم ليست همومه، فيما التدريس عموما ينمي الحفظ على حساب البحث .

«ان خلق الاسواق دمر الوعي» وولد العناصر الاقتصاديـــة

والثقافية القادرة على الدوام ان تنتج غربة عن الوطن وثقافته .

وكثيرا ما تجد جهازا غربيا كاملا شأن جامعة البهلوي في شيراز التي انشئت عام ١٩٦٢ لتكون اميركية في نهجها وادارتها، مقطوعة عن الدولة الايرانية الا عند التمويل ، وتتدخل في التوجيه الثقافي العام كما تتدخل الجامعة الاميركية في بيروت في تقرير مصائر الجامعة الوطنية .

واخذت مسألة اللغة اوضح اشكال العزلة والتسلل العميق الى مسام الجسد الحضاري . فالشاه من ضمن مشروع «التفريس» يطرح «تطهير» اللغة مما علق بها من «أدران» عربية وتركية ، اذ المعروف ان ما يزيد عن نصف القاموس الفارسي متأت من هاتين اللغتين .

هذا التعدي على «لغة القرآن» لا يمكن ان يتزود بالماضي الفارسي وحده ، فهو يضيف اليه حاضر الارتباط بالغرب . وهكذا يبدو ان الاحياء الوحيد لحضارات الانعزال البائدة كالفارسية والفرعونية والفينيقية يتم عن طريق الارتباط بالحاضر الغربي .

لقد فرضت قيم الاستهلاك على المثقف المقبول والطامح للرقي الاجتماعي ان يعرف اللغة الانكليزية وأحيانا الفرنسية ، بل ان يدخل بعضا من كلماتهما في لغته الاصلية ، وأحيانا ان يلفظ كلمات هذه اللغة بلكنة انكليزية او اميركية او فرنسية ، بحيث صارت اللغة «مرآة لوعي محطم» ، وظيفتها ان تساعد على الانفصال الاجتماعي بدل ان تساعد على الاتصال .

وضاعف من ذلك تركيز رسمي خاص في سياسة الاستثمار على قطاع الخدمات منذ عام ١٩٦٣ .

ان التوكيد على الاصل الاوروبي الآري للفرس يقدم نموذجا آخر عن العلاقة بين «يهوه» العشيرة اليهودية المتفوقة وبين امبريالية هذا العصر ، مما يظهر حملة هذه الثقافة الهجينة امام الجماهير المؤمنة موضوعا للحقد ورمزا لعدو بعيد مجرد لا تناله

الايدي .

ويزيد الامر سوءا ان نظام الكبت والتهجير جعل المثقف المشوه هو الكفاءة الوحيدة في الادارة وهو الحالة الثقافية المعلنة الوحيدة ، والكتاب الوحيد المقبول هو الكتاب المقلد بقدر كبير من حداثة النعمة على طريقة الشاه «المثقف» في كتابيه «رسالة لاجل ولدي» و«الثورة البيضاء» .

والفلاح الذي تصوره الثقافة الشاهنشاهية رمزا لحضارة فارس ، يهاجر من الريف الى حاضرة تعرض فيها كل سلع الغرب وكل التباهي بالثقافات ، ويطمح هذا الفلاح الخجول بثيابه ولهجته الفظة لان يصير اوروبيا هو ايضا ، فيفشل وينكفىء دينيا حاملا شحنات حارقة من الحقد تزكيها ابهة الاحتفالات بالعيد الـ ٢٥٠٠ للامبراطورية الفارسية ، و«دور» فرح ديبا في تقدم المراة في ايران !

ان من يستعرض اسماء المثقفين الذين اتكأ عليهم الشاه ، يقع على سمات المثقف الايراني المقبول ، فكل رؤساء وزرائه المدنيين (باستثناء مصدق) غير منتخبين ولا مسنودين بأية قاعدة شعبية ، يكتسحهم شعور بالتحلل من كل تضامن مع «الشعب» ، وكذلك رؤساء احزابه وكبار «معاونيه» .

معظمهم استمدوا قواعد دعمهم من سنوات قضوها في دنيا العلاقات الدبلوماسية مع واشنطن او لندن ، او كانوا ممثلين لبلادهم في السنتو ، او مفاوضين عن بلادهم في الكونسورتيوم النفطي ، او وزراء بلاط نجحوا في امتحان الخضوع .

وكلهم خريجو جامعات اجنبية :

حسين علا : خريج جامعة لندن ، وسفير اليها بين ١٩٣٤ و١٩٣٦ ، ثم سفير الى واشنطن بين ١٩٤٦ و١٩٥٠ ، فوزير بلاط عام ١٩٥١ ، فرئيس حكومة . حاول التدخل في قضية النفط فوضعته الجماهير جانبا ، وبعد استقالة الجنرال زاهدي

عام ١٩٥٥ أعيد ثانية لرئاسة الحكومة . وفي ١٩٥٧ عين وزيرا للبلاط .

الدكتور علي اميني: من ابناء كبار ملاكي الارض ويمت بصلة نسب الى الكاجاريين . خريج السوربون في باريس ، فوزير عدل ومال وضرائب . كان وزير اقتصاد في حكومة مصدق فتصدى له وازيح .

مفاوض ومهندس الكونسورتيوم النفطي ، وسفير الى واشنطن بين ١٩٥٦ و١٩٥٨ ، ثم رئيس حكومة (في ١٩٦٨ يتهمه عباس هويدا بالتآمر مع جهات اجنبية ومذ ّاك يختفي)(١).

الدكتور منوشهر اقبال : درس الطب في باريس ومونبلييه بفرنسا ، وعاد مدرسا في جامعة طهران . وبعد تقلب في الوزارات والمسؤوليات السياسية والاكاديمية ، عين وزيرا للبلاط الملكي في ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ، ثم رأس حكومة نيسان ١٩٥٧ واستقال في ايلول ١٩٦٠ منحنيا امام اتهام بتزوير الانتخابات . بعد ذلك راس وفد بلاده الى اليونسكو ، وفي ١٩٦٣ رأس شركة النفط الايراني الوطنية .

الدكتور عباس خلعتبري : منذ ١٩٦٦ وهو في سلك وزارة الخارجية ، مثّل ايران في العديد من العواصم الاوروبية وفي حلف السنتو ، في ١٩٧١ عين وزيرا للخارجية .

امير عباس هويدا : درس العلوم السياسية والاقتصادية في جامعة بروكسل ببلجيكا ، ثم نال من جامعة باريس شهادة الدكتوراه في التاريخ . عمل في وزارة الشؤون الخارجية بين ١٩٤٥ و١٩٤٨ ، وأصبح بين ١٩٥٨ و١٩٦٤ عضو مجلس ادارة شركة النفط الايرانية الوطنية . في ١٩٦٣ انضم لحزب «ايران

---

١ ـ ويحاول العودة مؤخرا بوصفه «معارضا» تطرحه بعض أطراف الكومبرادور رئيسا للحكومة .

نوفين» الرسمي الذي انشىء في السنة نفسها ، وأصبح عضوا في لجنته التنفيذية فنائبا لامينه العـــام ، وبين ٦٤ و٦٥ عين وزيرا للمال ثم صار رئيسا للحكومة (وتعرض للاعتقال مؤخرا) .

اموزيغار : نال من جامعة كورنيل الاميركية شهادة دكتوراه في علم السوائل المتحركة ، وتولى التدريس في الجامعة نفسها بعد تخرجه .

رجل نفطي ارتبط اسمه بـ «الاوبك» ، ورجل قمعي ارتبط اسمه بوزارة الداخلية .

الدكتور منوشهر كالالي : احد قادة حزب «ايران نوفين» ، دكتوراه قانون واقتصاد من جامعة باريس .

الدكتور محمد صاب : مؤسس حزب «ايـــــران نوفين» ، دكتوراه في ادارة الاعمال من جامعة كاليفورنيا الجنوبية .

الدكتور يحيى عادل : من مؤسسي حزب «ماردوم» الرسمي، طبيب الشاه الخاص ، درس الطب في باريس .

وهكذا دواليك ، تتوالى اسماء العواصم والمؤسسات النفطية والسفارات والثقافات ، واقعة على ارض تنتمي لغير هــــذا العالم .

ان العداء الديني لـ «الرأسمالية الحديثـــــة» ليس شرا اجتماعيا ، رغم انه يعزز افكارا سلفية تستقي شبابها من زخم الصراع مع هذه الرأسمالية .

لكن جوهر الامر ان القطاع «الراسماليوي» الذي يدخـــــل اقتصادات «العالم الثالث» يلغي التصنيف القبلي للتاريخ . فهنا ليس بالضرورة ان يكون التوجه القومي خطوة متقدمة على التوجه الديني ، وليس من الضرورة ان تكون الطبقة العاملة اكثر جذرية من الطبقات الاخرى .

فالخصوصيات ، كما تثبت ايران ، تغير الكثير من تفاصيل الصورة التي رسمت سلفا ، حيث تجد طبقات يجتثها قـــدوم

الرأسمالية بشكل كامل فيما يحافظ على الطبقة العاملة من حيث المبدأ ويهتم بها .

صحيح ان اهتمامه هو باستغلالها واعتصار فائض القيمة من عملها ، لكن عمل الطبقات الاخرى «القديمة» ينبذ بالكامل ويوضع خارج العملية الاقتصادية :

الطبقة العاملة تجد نفسها معارضة للقطاع «الرأسمالوي» من ضمنه ، اما الطبقات الاخرى فبينها وبينه معركة بقاء وفناء. وبعد تجارب الصين وفيتنام ما عاد مقنعا الحديث عن رأسمالية «تصنع العالم على شكلها ومثالها» ، بل العكس يبدو أميل للصحة ، فشعوب العالم الثالث من انتفاضة الحي الى ازمة الطاقة هي التي تفرض تكييفات جوهرية على النظام الرأسمالي، سيما وان هؤلاء المقتلعين لا يجدون مصبا صناعيا ينتهون اليه كما انتهت البورجوازية الصغيرة في اوروبا .

لم ينظر الشعب الايراني الى استغلال الشركة الانجلو ايرانية من منظور مطلبي ضيق ، وإلا لاقتصر التحرك على هذه الحدود، واثبتت تجربة مصدق استعداد الشعب الايراني لقبول اقفال الشركة مرة والى الابد مقابل ان يختفي الانكليز من ايران ، اذ هذه الرأسمالية ما كانت «تصنع» الشعب ولا تدخل معه في اية علاقة تفاعلية تقضي على معتقداته الموروثة وتمهد له ارضا ايديولوجية «ارقى» . لقد كان بينهما بالمقابل سور صيني تمارس من ورائه (لا من خلاله) علاقة نهب وسرقة للشعب كله .

في هذا لم يستطع الشعب الايراني ان يغفل ان نمو عبدان والاهواز وتطورهما (الطرق والنوادي والسينما والملاعب الخ) ارتبط بالنفط اولا بأول ، ولم يستطع ان يغفل انه بقي خارج دورة هذين النمو والتطور ، وظلت الكائنات الرأسمالية رموزا للاستعمار ، ولترشيح حضارته للاقتلاع دون مواجهة .

ان هناك قدرا من التجني المتسرع في الحكم على «تخلف» الوعي الديني في ايران ، والمبني على الموقف من الحجاب

والنوادي والسينما وغير ذلك .

فهذه المساحة من الاهتمام «الاجتماعي» لا تحدد اتجاهات اساسية وصارمة في معارك التحرر الوطني : المعارضة الباكستانية ، التي قاتلت ذو الفقار علي بوتو طرحت شعارات مشابهة في هذا الاطار ، لكن شتان بين المعارضتين .

ويصعب الا نرى الشاه ممثلا لمشروع «تحديثي» بهذا المعنى ، وكذلك ابوه وكمال اتاتورك وبورقيبه ، وربما انور السادات و«الجبهة اللبنانية» .. لكن ماذا بعد .

ان العين الدينية سريعة في التقاطها للزوايا الاخلاقية من بين رموز المجتمع «الرأسمالي» ، ومن هنا يستحيل قبول ان ايران التي لم تعرف الهيرويين قبل عام ١٩٥٣ صار ٢٠ بالمئة من شبابها الذين هم تحت الثلاثين مدمني هيرويين عام ١٩٧٠ ، وقد ذكر برتراند راسل مرة ان الاستخبارات الاميركية تعرف ان معظم المخدرات التي تصل الى الغرب مصدرها ايران ، لكن علاقات الغرب مع حكومة الشاه تحول دون طرح القضية .

وفي طهران وحدها بلغ عام ١٩٧٣ عدد المومسات اللائي يعشن من هذه المهنة ١٠ آلاف ، اما أشباه المومسات فتراوح عددهن بين ٣٠ و٥٠ الفا .

في المقابل يسمح «التحديث» بأكبر عملية اغتياب للعقل ، كأن تقدم فرح ديبا ، كما قدمت ايفا بيرون وكما تقدمت جيهان السادات ، إلهة جديدة مغمورة بحب صوفي تجيده المجتمعات الفلاحية .. بل تقدم ايران كلها مستعمرة يعرف اتجاهاتها مصرفيو «وول ستريت» اكثر مما يعرفها سكان البلد .

طبعا ليس المقصود تجميل الثقافة التقليدية ، بل ملاحظة ان رفض السينما وغيرها يقوم على تحديد «هذه السينما» كسفيرة عن الاستعمار وشاهدة على تحطم البلد .



قبل عقدين من الزمن تحدث فرانز فانون عن مرحلتين في موقف الجزائريين من نزع الحجاب ، مرحلة الرفض المطلق ، الذي قاد ضمن آليته الوطنية الى مرحلة القبول .

ووطنيو رجال الدين الايرانيين هم اليوم في المرحلة الاولى، لكن آلية نضالهم الوطني ستقودهم الى الثانية ، وتسريع الانتقال قد يكون دور اصحاب الوعي المتقدم المنخرطين في «حركة الجماهير العريضة» !.

الفصل الثالث

التفاوت الاجتماعي ومشكلة الاقليات والمناطق(*)

كثيرون في اوروبا الغربيةوالولايات المتحدة ما زالوا يعتقدون ان ايران هي بلد الكافيار الذي يأكله عامة الناس ، لكن قلة هي التي تعرف ، حتى في الوطن العربي ، ان «هناك مناطق في ايران يجهل سكانها من الذي يحكم البلد» كما كتب مناضل ايراني .

---

* نشرت في «السفير» في ٢٠-٩-١٩٧٨ .

فالتناقضات في ذلك البلد أعقد من ان تكون فقط بين طبقة وطبقة او قومية وقومية ، وهذا «التلوث» جاء الى حد بعيد تحت تأثير الدور المركزي الذي لعبه البترول في الاقتصاد الايراني ضمن علاقات التبعية للرأسمالية العالمية .

ويبدو ان التشابك بين تناقضات المناطق والطوائف والطبقات والقوميات يساعد على ابراز الوعي الديني بوصفه من جهة يقدم «حلا» ينطوي على قدرة كبيرة للقفز فوق التفصيليات في بلد يعج بهذه التفصيليات .

ومن جهة اخرى يعكس الشكل الخاص لتناقضات مجتمعاتنا الشرقية وهو شكل «أولي» بالمقارنة مع النموذج الكلاسيكي عن التطور الاوروبي .

ان ايران تقترب من اثيوبيا التي تمتلىء بالقوميات اكثر مما تقترب من تركيا التي لا تخالطها سوى أقلية واحدة كردية تعرضت لحملات قمعية متوالية وعميقة على يد اتاتورك .

ففي ايران يؤلف الفرس ، كما ذكر قبلا ، ٤٠ بالمئة من السكان ، فيما يتوزع الـ ٦٠ بالمئة على الاكراد والتركمان والاتراك والعرب والبلوخستانيين ومجموعة من القوميات الصغيرة .

ولتكوين خريطة سريعة يمكن القول ان الاكراد من اكبر القوميات غير الفارسية ، اذ يعدون حوالي ستة ملايين .

والوجود الكردي في الجزء الايراني من كردستان التاريخية، شأنه شأن الاجزاء الاخرى ، يعود الى الفي سنة قبل المسيح ، وينتشر على مسافة تتجاوز نصف الحدود المشتركة مع العراق.

وفيما يدين بالسنية معظم الاكراد ، فان ثلث اكراد ايران هم من الشيعة .

ويقيم العرب في عربستان (الاهواز) بشكل اساسي فيما يتوزع الاتراك والارمن في الشرق ، ويمتد الوجود التركي الى الشمال الغربي : مدينة همذان وما يحيط بها من جوار يتكلم التركية .

لقد عرفت كل هذه الشعوب تنظيمات مسلحة صغيرة مثل «الجبهة الشعبية لتحرير بلوخستان الغربية» و«الجبهة الشعبية لتحرير الاهواز» التي تحولت بعد ذلك الى «الجبهة الوطنية في الاهواز» وغيرها من الحركات ، معيدة الى الاذهان تاريخا طويلا من رفض الهيمنة الفارسية . فالاكراد بعد ان صفيت جمهورية مهاباد انتفضوا ثانية في مهاباد ويوكان عام ١٩٥٣ وأخمدت انتفاضتهم بالعنف ، ثم كرروا المحاولة في عامي ١٩٦٧ و١٩٦٨ ولاقوا المصير نفسه .

اما العرب وقد حظوا قبل عهد رضا شاه بمعاملة «حسنة» من الانكليز الذين كانوا يخططون آنذاك لمنع قيام سلطة مركزية ، فانهم دفعوا الكلفة مضاعفة على يد تلك السلطة ، اذ شتان بين ان تعقد الشركة البريطانية «اتفاقات» مع الشيخ خزعل ، شيخ المحمرة ، للتنقيب في ارضه وبين ان يتعرض للسحق على يد رضا شاه لغرض تمرير النفط في ارضه ، ثم ان ينزع الاسم العربي من تلك الارض وتكسب اسما فارسيا .

وكان كوكس المندوب السامي في العراق ابان ثورة ١٩٢٠ لا يخفي بعض التخوف من عرب ايران اذ رأى «دلائل تشير الى ان الخط السياسي الذي كان اولئك الافاضل ـ كما كان يسميهم ـ يتبعونه هو اقامة تعاون وتحالف بين العراق وايران، وبواسطة ايران والتعاون مع البولشفيك يتقلص النفوذ البريطاني في العراق» .

على اية حال ، فصلات السلطة الفارسية مع الاقليات لم يعتورها سوى شذوذ واحد هو العلاقة مع اقطاعيي الاكراد السنة والتي وطدتها أحداث كردستان العراق في الخمسينيات والستينيات ودعم ايران للملا مصطفى البارزاني .

ان هذه الفسيفساء القومية خلقت نتائج سياسية لا يمكن اهمالها، تجلت مثلا في ان اذربيجان التي كانت اكثر المقاطعات دعما

لمصدق ، وان قاعدة رجال الدين الراديكالية (من لبسة العمائم السوداء) غالبيتها من العرب . وبعض قياديي حركة رجال الدين ليسوا فرسا ، فآية الله شريعتمداري ليس فارسيا على سبيل المثال ، بل هو تركي ، كذلك يعود الخميني الى اصل عربي .

وفي مجتمع يشكل مسلموه ٩٥ بالمئة منه وشيعيوه ما يقارب ٩٠ بالمئة ، يقدم الدين هذا البديل التوحيدي للتجزئة القومية ، وهو بديل ديمقراطي عن وحدة قسرية تتجاوز التجزئة نويا لعنق الواقع .

وهذا ما يفسر في الوقت نفسه مخاطر طروحات فوق قومية بالكامل ، اذ غالبا ما تبدو الرابطة التي يدعو اليها رجال الدين وكأنها سوفياتية اسلامية، اذا صحت التسمية ، بمعنى انها تتوجه لشعوب وقوميات بكاملها في نقاط توحدها عند الدين ، مع تجاوز نقاط فروقها عند القومية .

فهل هناك قدر من المداعبة لمشاعر الفرس تنضاف الى كونية الحالة الدينية ؟

ان حركة رجال الدين تصر على ان طرح مسألة القوميات لا تفعل الان سوى الاساءة لوحدة المعركة ووحدة الشعارات ، وهذا قد يكون صحيحا ، لكن صحته لا توجب اغفاله الكامل سيما وانه موجود ومكرس في الواقع الايراني .

فالى اي حد يستطيع فكر ديني ، على كونيته ، ان يتجاهل قضية كهذه ، والى اي حد يستطيع ان يحلها اذا واجهها وهو غير مطعم بفكر اقتصادي تفصيلي ؟

لقد حذرت السوفياتية الشيوعية على لسان مؤسسها من «العظمة الشوفينية الروسية» التي اعتبر البعض ان ستالين احياها في فترة لاحقة ، فهل يتوفر حتى التحذير من «العظمة الشوفينية الفارسية» عند السوفياتية الدينية ؟

كذلك فبين الاقليات القومية الشيعية والاقليات الدينية والقومية

الاخرى في ايران فارق جدير بالملاحظة . فالاقليات الاولى تضررت من جراء سيطرة الرأسمالية الغربية والشوفينية الفارسية ، اما الاقليات الثانية فاستفادت على العموم واستقت موقعها الاجتماعي من موقعها في القطاع «الرأسمالي» القادم من اوروبا وأحيانا من صلتها بالشاه والاسرة الحاكمة .

الاولى حرمت من الاستثمارات والثانية شاركت في تقرير وجهتها .

بهذا المعنى احتلت الاقليات الدينية مساحات سوداء في الذاكرة الشعبية وقدمت رموزا عينية عن الاستغلال والخضوع للاستعمار والعلاقة مع الشاه .

ويقول الباحث هرشلاغ :

«كانت الصناعات القائمة في اغلبها في أيدي الاقليات والاجانب ، ويمكن اتخاذ احد الفروع الاساسية ـ صناعة النبيذ ـ كمثال اساسي حيث كان انتاج النبيذ محرما على الفرس (فيما عدا العائلات الغنية) وكان في أيدي الارمن واليهود والاوروبيين، ومع ذلك فان الانتاج والاستهلاك المحلي غير القليل قد استمر في مواجهة التحريمات الدينية» .

وفي ايران ٨٠ الف يهودي وتاريخ من التنابذ مع المشاعر الوطنية العريضة وما تتسع له تلك المشاعر من ردود فعل تتراوح في شوفينيتها الوطنية . ففي ١٨٣٩ فرض التشيع في مدينة مشهد على عدد كبير من اليهود . وفي الثورة الدستورية لعامي ١٩٠٥ و١٩٠٦ منح اليهود حقوقا متساوية لم يكونوا يتمتعون بها .

وزاد في الحقد الشعبي الواسع العلاقات المزدهرة بين اليهود وبين رضا شاه وابنه محمد رضا ، وقيام دولة اسرائيل حيث صدر عن الامام ابو القاسم الخوئي في النجف بالعراق العديد من المنشورات «التي تهاجم شاه ايران وتتهمه بممالأة اليهود في

بلاده» وقدمت حركة مجاهدي الشعب الايراني وثيقة بينت الموقع الممتاز الذي تحتله البورجوازية اليهودية في قطاعات الصناعة والمال والاستثمار في ايران .

اما المسيحيون الذين يعدون ٣٥ الفا فوضعهم لا يختلف كثيرا عن وضع اليهود ، بحيث كان اتساع دورهم الاقتصادي يترافق دائما مع تدهور الاقتصاد الوطني ، واتساع نفوذهم الاجتماعي يتصاحب مع ازدياد انخراط ايران في علاقات السوق الغربية . ففي القرن الثالث عشر «منحت حقوق تجارية هامة للمسيحيين وازداد اتساع تلك البدايات الاولى للامتيازات الاجنبية الحديثة في القرن السابع عشر عندما اصبحت الحقوق التي سبق منحها قابلة للتطبيق على مجالات اضافية ، مثل الحماية المدنية والدينية ، والاعتراف الرسمي بالممثلين والقضاء المستقل» .

ان آلية التقهقر في وجه الغرب هي نفسها آلية الصعود المسيحي اذ «عملت الامتيازات الاجنبية في القرن التاسع عشر اساسا على ان تحدد بمزيد من الوضوح الحقوق الممنوحة للاجانب في الماضي وتوسيعها لتضمن معظم البلدان الاوروبية . فالامتيازات الاجنبية التي حصلت عليها روسيا في ١٨٢٨ منحت الممثلين الرسميين الروس حق القضاء غير الاقليمي ، اي حق مقاضاة المواطنين الروس المقيمين في ايران . وتمتع الروس بنسب ادنى من الضرائب والجمارك ، تبدأ من ٥ بالمئة فأقل بالاضافة الى سلسلة من المزايا التجارية الاضافية . بعد ذلك بقليل ، في ١٨٣٦ و١٨٤١ وعد البريطانيون ايضا بنفس الحقوق (...) وتتشابه معاهدات الامتيازات الاجنبية تشابها شديدا مع بعضها البعض» .

وهكذا مثّل اليهود والمسيحيون تحديا مبكرا للوطنية والشعور الديني معا ، والى جانب هاتين الاقليتين ، وجدت حالتان أخريان : الزرادشتية والبهائية ، وتكتنهان الكثير من

المواصفات الاجتماعية المسيحية ــ اليهودية .

فهناك ٣٥ الف زرادشتي ، معظمهم تجار يعيشون في يزد وكرمان وطهران ولهم خمسة معابد .

ويحكم الزرادشتية شعور عميق بالتضرر من الاسلام يرافقه تباهي التاجر الاقلوي على الشعب ، واعتقاد أكدته التجربة ان الزرادشتية هي اول المستفيدين من التراجعات الرسمية عن الاسلام .

اما البهائية التي نجد في ايران ٦٥ الفا من أتباعها فقصتها أكثر تعقيدا ، اذ هناك روايتان لتاريخ البهائية ، احداهما يقدمها المستشرقون ومفادها ان «الباب» صاحب الدعوة كان وطنيا ثوريا ، معاديا للغرب ، وفي الوقت نفسه داعية لتحرر المرأة ولنمط من الاشتراكية الطوباوية . والثانية ذات المصدر الشيعي تؤكد على العناصر المبكرة المعادية للاسلام في الدعوة البابية وارتباطها القديم بالغرب . وتجد الرواية الاخيرة أسانيدها في العلاقات الراهنة الجيدة بين اسرائيل والمؤسسات الدينية في الغرب وبين البهائيين ، يقابل ذلك ان البهائية ممنوعة في العديد من الاقطار العربية ، وهي في توكيداتها تنزع نزوعا كوزموبوليتيا نحو «وحدة جميع الاديان والسلام العالمي والثقافة الكونية» .

على اية حال ، فالمهم ان هذه الاقليات تصطف في موقع واحد امام الشيعية ، وتشكل لها استفزازا سياسيا ــ اقتصاديا ــ ايديولوجيا .

وتمثل القبائل والعشائر قطاعا سكانيا وسياسيا ملحوظا . صحيح ان «الاصلاح الزراعي» قد ضرب عصب التنظيم العشائري ونقل أشكالا من السطوة البيروقراطية الى الريف ، وهذا ما سنعرض له فيما بعد ، لكن الطبيعة المعكوسة لتلك «الرأسمالية» جعلت التغييرات ذات طابع شكلي ، بل واعطت

«الجوهر» قدرة جديدة على استئناف ذاته في خضم الصراع مع البيروقراطية .

في التحليل الاخير يمكن القول ان القبائل تضررت شديد الضرر من قدوم «الدولة» الى ايران ، وتعرضت على يد رضا شاه لما تعرضت له مثيلاتها التركية على يد اتاتورك .

فرضا الذي رأى في القبائل ادوات عرقلة لبناء الدولة والمجتمع المعاصرين ، حاول دفعهما الى الاستقرار والتوطن بقسوة وفظاظة باديتين ، ولئن تحقق قدر من هذين الاستقرار والتوطن فقد تحقق قدر اكبر من خفض عدد سكان القبائل ، مضافا اليه خسران ملحوظ للثروة الحيوانية والزراعية .

واكبر القبائل قبيلة بختياري التي اعطت الشاه الحالي مؤسس السافاك الجنرال بختيار ، كما حاول هذا الشاه استرضاءها بزواجه من ثريا ، احدى بنات اغنياء القبيلة ، ونافذيها .

تعد البختياري ٤٠٠ الف ، وفي سنة ١٩٠٧ اشتركت في تمرد دفع الشاه للهرب الى السفارة الروسية ، وتحالفت مع «الحزب الديمقراطي» الموالي للانكليز ، فأجبرت احد وزراء الدفاع المعادين لذاك الحزب على الاستقالة . وفي ١٩٠٩ قاتلت مجددا ضد الشاه محمد علي الذي تجرأ على الغاء «المكتسبات الدستورية» مدعوما من الروس .

وهكذا كانت البختياري مندرجة في السياسة البريطانية عموما ، وشجع البريطانيون استقلاليتها جريا على سياستهم السابقة على صعود رضا شاه ، وحين اعترضت البختياري على التنقيب عن النفط في اراضيها كوفئت بثلاثة آلاف جنيه تدفع سنويا لزعيمها ، ثم اقام البريطانيون علاقات و«اتفاقات» مع زعمائها .

على ان الاحتياطي الثوري للقبائل لم يكمن في البختياري بل في القبيلة الثانية المعروفة بـ«القواشقة» والتي احتفظت بمسافة

نسبية عن السياسة الانكليزية .

والقواشقة الذين يعدون ٢٠٠ الف ويقطنون جنوبي ايران ذوو تقاليد عريقة متصلة في العداء للشاهين رضا ومحمد .

فقد اصطدم رضا بهم في محاولته نزع ذاتيتهم وتحطيمها، لكن المحاولات المركزية لم تكن اكثر من طلاء خارجي ، فبعد ازاحة رضا شاه ، عام ١٩٤١ ، عاد القواشقة الى ممارسة حياتهم القبلية ، كما عاد الاتراك الى أهداب الدين بعد اتاتورك .

ومع استتباب الامر للشاه الثاني انتفض القواشقة عام ١٩٤٦ ثم في أوائل الستينيات ضد «ثورة الاصلاح الزراعي البيضاء» لكن مصير الانتفاضة لم يكن افضل من سابقاتها .

ان جذب ايران من عنقها نحو الراسمالية أدى الى توريثها كمية كبيرة من الخراب ، يصعب على اي بلد «متقدم» ان يتعايش معها ، فقد شهدت البلد نموا سكانيا سريعا جعلها تقفز من ٨ ملايين عام ١٩٠٠ الى ٣١ مليونا عام ١٩٧٠ و٣٥ مليونا تقريبا هذا العام .

اما الاتجاهات الاجتماعية لهذا النمو فتعبر عنها الارقام التي قدمها الباحثان البريطانيان كلارك وفيشر ، اذ في عام ١٩٤٠ كان ٧٩ بالمئة من السكان ريفيين ، وفي ١٩٦٦ لم يزد الريفيون عن ٤٠ بالمئة . هذا التحضير الهمجي الذي عرفته عدة بلدان في العالم الثالث يجد تفسيره في ضرب الانتاج الحرفي ، والتعويض ب «صناعة» تركيبية هزيلة ، وقيام طهران بضخ الريف الى خارجه ، خصوصا في خضم «الثورة البيضاء» والدور الذي تلعبه ايديولوجيا الاستهلاك في اعاقة تسويق الانتاج الزراعي والحرفي .

ان اكثر النسب تسامحا تحدد نسبة الأمية في ايران ب ٨٠ بالمئة (وقد قدرت نسبة الأمية في الريف عام ١٩٦٢ اي لدى انطلاق «الثورة البيضاء» ب ٩٦ بالمئة) .

وحتى الصناعة التركيبية تتركز حول العاصمة واصفهان وتبريز والاهواز قرب مرفأ تحميل النفط في عبادان ، فيما لا يخصص لكردستان واذربيجان وخوزستان وغيرها الا فتات الاستثمارات «الصناعية» الموزعة ، بحيث تبقى مناطق واسعة منها اسيرة القرون الوسطى ، ونهبا لارتكاب عادات غير فارسية !

ويبدو المجتمع الايراني كالمشاة الذين لا يصلون . فربع هذا المجتمع مهاجر ونصف المهاجرين ينتهون عاطلين عن العمل ، تضاف اليهم قبائل صغيرة ، متنقلة يصعب احصاؤها .

وهذه الحركة السريعة والعميقة بموازاة الحركة السريعة والعميقة للراسمالية في ايران ، تقلل من الارتباط بالارض وتضرب الولاءات المكانية والزمانية باتجاه حلول غير واعية ، يزيد الانسداد الاجتماعي منها .

وتبرز الكونية الدينية أقدر ما تكون على التخاطب مع شعب علاقته بالارض والانتاج موسمية ومؤقتة وعارضة . فالبدوية المعاصرة هذه تعكس نفسها على أشكال الوعي الايديولوجي والسياسي في المدن .

قبل «الثورة البيضاء» ، وفي ايار ١٩٥٧ بالتحديد ، جاء في تقرير للمستشار الضريبي ب. ر. تايلور «ان ٥٠ بالمئة من دخل ايران الوطني يتأتى من الاراضي الزراعية المفلوحة ، في حين ان هذه الاراضي لا تحظى بما يزيد عن ٢ بالمئة من عائدات الموازنة الحكومية» .

وقد نما قطاع الخدمات خصوصا بعد «الثورة البيضاء» فيما قادت التضحية بالزراعة في سبيل «الصناعة» الى ان تشتري ايران عام ١٩٧٤ مليوني رأس غنم و٣ ملايين طن قمح و٤٠٠ الف طن سكر و٣٠٠ الف طن أرز .

وفي بلد يعيش ١٨ مليونا منه على الزراعة ، آلت أحادية الاقتصاد النفطي لانهيار الصادرات غير النفطية بين ١٩٥٩

و١٩٧٥ من ٢٢ بالمئة الى ٥ بالمئة من مجمل الدخل الوطني .

واذا كانت مشكلة الريف ـ المدينة احدى المشاكل النموذجية للتخلف ، فالمشكلة التي لا تقل نموذجية هي قيام فروق شاسعة وهائلة بين العاصمة وباقي المدن ، اي ان يتجه نمو العاصمة بالتعارض الكامل مع نمو المدن الاخرى ، كأن تكون العاصمة طهران في عام ١٩٦٦ ستة أضعاف المدينة الثانية أصفهان .

ان الاسواق وتوابعها «الرأسمالية» هي التي شكلت المدن وأقامت التفاوتات الهائلة ، بحيث تدهورت نقاط التجارة الداخلية ذات الازدهار التاريخي لصالح نقاط التجارة مع الخارج وخصوصا البحري منها ، هذا ما يشير اليه الباحثان البريطانيان كلارك وفيشر حين يلاحظان كعينة على ذلك ان :

«المدن الاساسية التي استمرت في النمو ، انما استمرت على حساب البلدات الاصغر. فمدن ككرمنشاه وكور راماباد وبوروجرد نمت كلها بنسبة تتعدى الـ ٤٠ بالمئة بين ١٩٥٦ و١٩٦٦ فيما همذان واراك هما المدينتان الوحيدتان في جبال زاغروس اللتان نمتا بنسبة تقل عن ٣٠ بالمئة» .

ويلاحظ ان المدينتين الاقل نموا غير صالحتين اقتصاديا لغير مرور التجارة الداخلية نظرا لميل هاتين المدينتين نحو الداخل ، والامر نفسه ينطبق على مدينة قم الدينية التي تقع في منتصف الطريق بين همذان واراك .

ان طهران نتيجة «التنمية» ذات الطابع المتشدد في مركزيته مضافا الى ذلك تحولها الى حاضرة للسلع المستوردة صارت مصبا للهجرة من باقي المدن لا من الارياف وحدها .

ففي العشرينيات وصف السيد محسن الامين ايران التي زارها آنذاك بأنها «كلها تضاء بالنفط وليس فيها كهرباء الا في طهران» . وتراكم هذا البناء الاحادي المعوج بحيث كشف احصاء أجري عام ١٩٥٦ اي قبل «الثورة البيضاء» والنزوح الواسع

الذي تلاها ، ان ٩٤٣٠٦ نزحوا حتى ذلك الحين من تبريز الى طهران ، و٧٨٣١٨ نزحوا من اراك الي طهران ، و٥٣٠٣٣ من اردبيل ، و٥٠٨٨٨ من اصفهان ، وهكذا دواليك .

وكان طبيعيا ان يزداد التفاوت ضمن ايـــران نفسها ، بين شمال تتباهى به البورجوازية وجنوب يمتلىء بالبروليتاريا الرثة وكل سقط المتاع الاجتماعي الممكن والمتخيل .

الفصل الرابع

طبيعة السلطة و « الديمقراطية » وحقيقة دور الجيش (*)

يبدو ان البريطانيين راهنوا في البداية على صحافي مثقف متطبع بالطباع الغربية ، قادر على جعل البلد تنفتح امام الامبريالية وتوظيفاتها . هذا الصحافي هو ضياء الدين طبطبائي، ابن البيت الديني الذي بوسعه ، كما اعتقد البريطانيون ، ان يؤمن دعما دينيا للنظام الجديد .

---

* نشرت في «السفير» في ٢٢-٩-١٩٧٨ .

لكن طبطبائي الذي تولى الجانب السياسي من الانقلاب ، لم يكن مؤهلا لفرض السلطة المركزية كما كان حال نده العسكري رضا .

ومالت كفة الميزان لصالح هذا الاخير الذي لم يتحمل الطبطبائي حتى كمشارك ثانوي في السلطة .

وفهم البريطانيون بالتجربة انهذه «المركزية» المطلوبة لخدمة مصالحهم لها معادل سياسي لا غنى عنه في بلد «متأخر». هذا المعادل هو حكم طغياني استبدادي تطغى «العائلة» فيه على «الطبقة» وتلعب دورا بدليا عنها ، ويطغى «زعيم» العائلة عليها ويلعب دورا بدليا عنها .

كان واضحا اذن ان القطاع الراسمالوي لا بد ان يقزم نفسه كي يستطيع المرور في حلقة التأخر الضيقة ، ول «البرجوازية» التي يحتضنها التأخر في ايران تقاليد وقصص يذكر منها على سبيل المثل لا الحصر ان علا الدولة وكان يحكم طهران عام ١٩٠٨ تعود ان يضرب رجال الاعمال على أقدامهم («الفلق» كما يقولون بالفارسية ايضا) كلما اراد ان يخفض سعر السكر !

لقد ساعدت الازمة العالمية في آخر العشرينيات على تشديد احتكار الدولة ، وتصاحب هذا مع قدوم العديد من عائلات الملاكين، وتجار المقاطعات الى طهران مع بدايات «نمو» العاصمة، وكان آلاف العمال المهرة وغير المهرة يتهافتون عليها بحثا عن عمل .

«اما مصدر تراكم الثروات وتضاعفها لدى الملاكين الكبار ، قدامى وجددا ، فكمن في حقيقة ان السلطة مورست من خلال شبكة العلاقات والاتصالات غير الرسمية حيث لعب النفوذ الشخصي دورا كبيرا» .

وبدا وضع «العمل» الناشىء على قاعدة «الرأسمالية الحديثة» محاطا بالسخرة والخضوع (الآسيويين) تجاه اصحاب العملان المحليين الذينتجاهلوا ببساطةقانون١٩٣٧ (الذيافترض

به «ان يقدم تنظيمات للمباني والمصانع وشروط الامن والصحة والتدريب المهني وتعويضات العمال الخ»» . او تجاه السادة الانكليز حيث «الفعلة الذين يشتغلون (بالنفط) هم ايرانيون والمهندس انكليزي ، ويحمل العامل الايراني فوق رأس المهندس الانكليزي شمسية عظيمة بقدر الخيمة الصغيرة لتقيه حر الشمس» .

وحوفظ على معظم التفاصيل الصغيرة ، في عهد محمد ، فقد وصف احد المثقفين الغربيين مصنع سجاد زاره في تبريز في أوائل السبعينيات بقوله :

«يضم المصنع ٨٠٠ عاملا بينهم ٦٠٠ تتراوح أعمارهم بين ٦ و١٤ عاما» .

من ضمن هذه القوانين الاستبدادية احتفظ رضا خان بأموال «الدولة الحديثة» بطريقة وان اختلفت في الشكل فهي لم تختلف في الجوهر عن خزائن الامامين يحيى وأحمد في اليمن ، وتصرّف رضا بالدولة اياها كمزرعة فوهب ابنية كان مقررا ان تتحول الى جامعات ، لبعض ضباطه وأتباعه ، وهكذا دواليك .

واستمرت القوانين نفسها سارية المفعول مع محمد بهلوي ، فبدت «البورجوازية» تابعا عارضا لسلطته وللعائلات الـ ٤٥ المحيطة به ، تتحمل الاقحام الشخصي والفظ يمارسه على السياسة كما على العملية الاقتصادية وعلاقات الانتاج .

فمن رضي عنه الشاه وزر او رأس حزبا ، ومن تحلق حول الاميرة أشرف سهلت عليه فرص الانضمام الى شبكة الوسطاء .

(ويجب ان ننوه هنا بنسبية الطموح البورجوازي حيث «تضاءل بسرعة الخط الفاصل بين الرأسماليين المحليين والدوليين في العقد الماضي ، لان الشركات المتعددة القومية التي شجعتها الحوافز الضريبية ومعدلات الارباح المرتفعة وسعت عملياتها الى درجة كبيرة في ايران» وابتلعت القسم الاكبر من

البورجوازية الوطنية التي تلقت هزيمة سياسية كبرى بسقوط مصدق) .

ان ابتلاع الكومبرادور للبورجوازية الوطنية لا يعني وجود اية ثوابت سياسية في مصلحة الطبقة الوسيطة ، وتقدم هذه الرواية نموذجا عن العلاقة التبعية بالشاه حيث الملك والعائلة هما الثابتان وكل ما عداهما عرضة للانتقال والتغير .

«في تشرين الثاني ١٩٥٤ صوّت الكونغرس الاميركي لصالح تقديم مبلغ ١٢٧ مليون دولار لايران لتمويل خطة اقتصادية لسبع سنوات تنفذ تحت اشراف ابو الحسن ابتهاج وهو المدير السابق للبنك الوطني (....) وسرعان ما نشأ الخلاف بين ابتهاج ومجموعة اصحاب المشاريع حول تسيير خطة التنمية ، وعمل التناقض هذا على تدعيم الموقع التقريري للشاه (....) وكان الشاه عظيم السرور بمبدأ «فرق تسد» .

طبعا هذه القصة المخففة تظهر الشاه كرجل مناورات «يتكتك» على الكومبرادور ، لكن الحقيقة ان التاريخ آنذاك هو عام ١٩٥٤ اي السنة الاولى للشاه بعد ازاحة مصدق ، وكان في تلك السنة يعاني قدرا هائلا من الضعف والمديونية تجاه الكومبرادور الذي مارس ضغطا لصالحه على مصدق .

لكن الشاه بات يواجه بفظاظة حين صار من القوة بحيث «يعين» الكومبرادور كما يعين الموظفين .

والكومبرادور من جهته لم يتردد في اعلان استيائه حين كانت تسمح الظروف ، واستقالة هويدا اخيرا من وزارة البلاط مضافا اليها موقف « جمعية التجار » وكومبرادوريوها ، بمثابة اعلان الاستياء مع ظهور الضعف على وجه النظام .

والاستياء يطال العديد من التفصيليات شأن العشوائية التي تحكم المشاريع والتأخر الذي عرقل انجاز عدة عقود مع الشركات الاجنبية في الخطة الخمسية الراهنة .

ويذكر ان هذه الطبقة قد تذمرت من فقدان الخدمات وخصوصا انقطاع الكهرباء الذي كان يوقف الاعمال خمس ساعات يوميا على الاقل ، ويقال ان انقطاع الكهرباء كان احد اسباب استقالة هويدا من رئاسة الحكومة والمجيء باموزيغار في آب ١٩٧٧ .

اذن هذا البناء الشرقي الضخم ، الاجوف في مضمونه ، طرح تناقضات مع الكومبرادور نفسه ، سيما وان البيروقراطية والرشوة والفساد ، كلها زادت عن الحد واخضعت الوسطاء لابتزازات بات يصعب تحملها .

يضاف الى ذلك الاستهلاك الماجن الذي يمارسه الشاه والعائلات الـ ٤٥ ، وهو استهلاك ذو تاريخ في ايران الشاهنشاهية .

ومن المعروف ان ثروة الشاه تضم فيما تضم احتكار مزارع الافيون ، وأرض «الرضا» الدينية التي تدر أموالا طائلة يتبرع بها او ينذرها الفقراء والمؤمنون ، ومع هذا يبدو كل حرام «حلالا» عند الاسرة المالكة ، وتعتقل الاميرة أشرف ، شقيقة الشاه ،عام ١٩٦٠ في سويسرا لان حقائبها كانت مليئة بالهيروبين المهرب !

لقد بيَّن زونيس في دراسة له عن «النخبة» المقربة من الشاه ان «قلة منها تملك مزايا الشخصية التي ترتبط عادة ب «الحداثة» : مشاعر الامان والتفاؤل والاهتمام بالتطور الاجتماعي ، وبدلا من الشعور بالامان فانهم يفتقدون الامان بحدة وهم سيئو الظن بعمق ، ومعزولون على نحو عصابي وعاجزون عن العمل معا ، ومستلبون بصورة كلية عن بيئتهم . وفي الواقع تظهر الاحصاءات المقارنة بالنسبة لاوروبا ان استلابهم عن مجتمعاتهم يفوق نفور الطبقات العاملة في فرنسا وايطاليا من انظمتها السياسية . وعوضا عن التفاؤل فانهم متشائمون بحدة من كل شيء ومن كل الناس تقريبا : من مواطنيهم وزملائهم

واصدقائهم وأسرهم وأولادهم وحتى انفسهم . وعوضا عن التزامهم بالاصلاح الاجتماعي ، فانهم محافظون اساسا ، وشكاكون بالنسبة لامكانات التقدم ، كما انهم يحتقرون الجمهور العام .

اكثر من ذلك ، فان صفاتهم السلبية تتزايد ليس بمقدار ما يهبط المرء نزولا في السلم التعليمي بل بمقدار ما يرقى الى مستوى الدكتوراه الاجنبية» .

لقد تعاون على انتاج هذا الرجل البورجوازي الضائع تثقيف شديد الغربية وحكم شديد الشرقية في جوهره ، فكان الخوف من المستقبل تتويجا لاحساس كل فرد ، مهما علا مقامه ، بأنه ضحية محتملة على مذبح الشاه ، ومصائر كثيرة عرفها مدنيون وعسكريون كبار تؤكد ذلك .

مرة وصف فريدريك الكبير «الديمقراطية» بقوله : «ان أترك الشعب يفكر كما يشاء ، وأحكم ، من جهة اخرى ، كما اشاء».

هذا الوصف فظ بالطبع ، لكنه متقدم عشرات الاميال عن ديمقراطية الشاهنشاهية ، فترك الشعب يفكر كما يشاء ، امر شديد الخطورة في ايران . ولو اخذنا مثال الصحافة بوصفها المفترض «صوتا للشعب» فهمنا حدود التفكير المتاحة .

ففي عام ١٩٦٣ ، اي حين قمعت الانتفاضة التي كلفت اربعة آلاف ضحية ، خسرت ٧٥ جريدة ومجلة امتيازاتها في ثمانية اشهر ، وبلغ الاحتكار الاعلامي حالة نموذجية من حالات الانظمة التوتاليتارية ، حيث سيطرت مؤسسة «اطلاعات» الصحفية على ٦٥ بالمئة من كل ما ينشر في البلد ، ويملك هذه المؤسسة السناتور ورئيس مجلس الشيوخ السابق عباس مسعودي (توفي عام ١٩٧٤) الذي كان ألعوبة في يد الشاه يستعمله في سياسته الخليجية كونه احد المستعربين وذوي الصلات الحسنة مع مشايخ الخليج .

اما «الاحزاب» فقد انشأ الشاه عبر مجموعة من المحيطين

به اربعة منها، هي «ايران نوفين» و«ماردوم» و«بان ايرانيست» و«الايراني» لكنه بعد ذاك لم يتحمل هذا القدر الضئيل والضروري لعبور الديكتاتورية وتجميلها فأعلن حل «الاحزاب» مكتفيا بحزب واحد هو حزب «راستاخيز» .

وتعامل الشاه مع رئيس الحكومة بوصفه ممثله لدى البورجوازية لا ممثل البورجوازية لديه كما فعل الكثيرون من الاصلاحيين اليمينيين في الغرب ابان المراحل الاخيرة من صراع الاقطاع والبورجوازية .

وهكذا كان التلاعب برئيس الحكومة جزءا من التراث الشاهنشاهي . فمنذ ١٩٠٦ التي فتحت معها كامل الابواب للامبريالية ازداد سقوط «الديمقراطية» الى ما دون القعر ، وجاء الى «السلطة» اربعون رئيس حكومة .

واذا اخذنا حكم الشاه الحالي في مرحلته الثانية اي بعد الاطاحة بمصدق ، وجدنا التالي :

ـ عام ١٩٥٣ : يؤتى بالجنرال زاهدي قائد الانقلاب رئيسا للحكومة .

ـ عام ١٩٥٥ : علا رئيسا للحكومة .

ـ عام ١٩٥٨ : اقبال رئيسا للحكومة (وهو المسؤول عن سياسة «الباب المفتوح» التي جاءت بالازمة الاقتصادية في ١٩٦٠ ـ ١٩٦١) .

ـ عام ١٩٦٠ : اميني رئيسا للحكومة .

ـ عام ١٩٦٢ : علام رئيسا للحكومة .

ـ عام ١٩٦٤ : منصور رئيسا للحكومة .

ـ عام ١٩٦٥ : هويدا رئيسا للحكومة .

ـ عام ١٩٧٧ : اموزيغار رئيسا للحكومة .

ـ عام ١٩٧٨ : امامي رئيسا للحكومة .

واذا استثنينا هويدا وجدنا ان اطول فترة دامت ثلاث

سنوات ، فيما «حكمت» الاكثرية الساحقة سنة او سنتين .
اما سبب طول اقامة هويدا في رئاسة الحكومة فهو انه اسم ارتبط بـ «الثورة البيضاء» التي عاش الشاه طويلا على رصيدها، فلما استنفدت هذا الرصيد في العام الماضي سقط بطلها ورمزها .

ان «الدستورية» التي كانت احد أعلام العلاقات الايرانية الغربية واحدى علامات تغرب ايران المبكر لم تجوف كما جوفت في تلك البلاد على يد شاهات واجهت الجماهير بفطرة خشنة ، وأوجبت على الموالي الانصات ورفع الاصبع .

فحالما أحس رضا شاه ان بوسعه اعلان « جمهورية عسكرية» عام ١٩٢٥ سعى لاغتيال الدستور ، فقامت تحركات جماهيرية في شوارع طهران منعت هذا الاعلان دون ان تؤثر على المجرى الفعلي لتعميق الديكتاتورية .

وجاء الشاه محمد ليضيف على دستور ١٩٠٦ :

١ ـ ايجاد مجلس اعلى للشيوخ يعين هو نصفه ، مقللا من جاذبية وفعالية البرلمان والانتخاب من حيث المبدأ.

٢ ـ انتزاع الحق لنفسه بحل البرلمان حين يشاء او تشاء «ظروف الامة» !

وكان الشاهان قد تناوبا على اغتصاب الديمقراطية من زاوية اخرى ، اذ وضع الشاه رضا القانون ١٣١٠ وقام الشاه محمد بتوسيع مفاعيله ، والقانون المذكور يسمح بمحاكمة من «يتهم» بالانتماء للاشتراكية والشيوعية بالسجن مدة تتراوح بين ثلاث الى عشر سنوات .

وفي السياق نفسه أقدم الشاه عشية «الانتخابات» الاولى بعد رحيل مصدق على جعل كل مرشح يوقع رسالة استقالته كشرط لترشيحه .

ان احتقار الديمقراطية على هذا الشكل في ايران هو احتقار موجه للبورجوازية ، وهو يقود الشاهنشاهية للبحث

عن ركيزة حكم اخرى ليس من الضرورة ان تأتي من «المجتمع الحديث» بل قد تأتي من المجتمع القديم وتضاف اليها «حداثة» تؤمنها العلاقة الدائمة مع الامبريالية ، وهنا انتصب الجيش وملحقاته .

فالعسكريتاريا الايرانية تجد العديد من الاسباب التي تفسرها ، لكن احد اهم الاسباب هو المنطق البدلي الذي قاد الى اعتماد النظام على قوى غير محددة اجتماعيا بدقة ، بحيث تفلت من التأثير المباشر والطاغي لاي طبقة من طبقات المجتمع ، فالعسكرية تستجيب لطباع الشاه البروسية التي تتملص من كل عقلانية اجتماعية او طبقية .

ان الاهتمام بالجيش مبكر ، اي منذ بداية عهد رضا الذي جاء محمولا على أكتافه ، فاستقوى به وحدد موقفا سلبيا واضحا من «مشاركة البورجوازية» كما تمثل ذلك في اقصاء الطبطبائي.

«وخلال مدة حكمه التي دامت ١٦ عاما ، اهتم كثيرا باقامة علاقة خاصة مع العسكريين . فزاد ميزانية الجيش بمقدار خمسة أضعاف ، ووسع الجيش ليصل عدده الى ١١٢ الف رجل بعد ان كان لا يتجاوز ٤٠ الف رجل ، واجتذب الضباط الى البلاط ووفر لهم معاشات مغرية وباعهم قطع ارض تملكها الدولة بأسعار اسمية ، ووضعهم في مراكز عليا ، وكذلك ، وهذا هو الاهم بالنسبة لسلالته ، علَّم اولاده ليصبحوا قادة في الجيش» .

وظل ينظر الى هذه المؤسسة المحظوظة بوصفها المؤسسة «القومية» الوحيدة في ظل الغياب الفعلي للوحدة الوطنية وللبرلمان كمؤسسة قومية ، وبهذا تطابق الجيش مع «التحديث» الغربي القومي وكان رمزه وحامله كمهمة تاريخية ، وهو ما ترجم نفسه ابان «الثورة» الزراعية حين اعتبر الجيش «طليعة» في عملية «تحديث» الارياف .

وحظي الجيش على الدوام بامتيازات هائلة، تمر عبر قناة وسيطة من قياداته : ابناء «الذوات» وأبناء زعماء القبائل الموالين ، وأحدهم محمد رضا نفسه الذي كان رئيس الاركان في عهد ابيه رضا .

وتغلغل فيه الخبراء الاميركان (والاسرائيليون) بحيث قدر احدهم ان عدد الخبراء الاولين العاملين في وسط الجيش الايراني يبلغ ٤٥ الفا !

وتحول الجيش شيئا فشيئا الى بالوعة للمال الايراني . فسلطة الشاه مسلحة بالنفط تلح على طلب السلاح الحاحا مازوشيا يشتهي عذابه على يد مصانع السلاح وبيوتات المال في الغرب .

لقد ارتفع عدد الجيش من ١١٥ الف جندي عام ١٩٤٣ الى ١٥٠ الفا عام ١٩٥٠ و٣٠٠ الف عام ١٩٧٦ . وبموازاة التوسع هذا ارتفعت ميزانية الجيش بشكل أسطوري .

وكانت معظم «المساعدات» الاميركية اثر سقوط مصدق والتي بلغت بين ١٩٥٤ و١٩٦٣ حوالي ٩٥٠ مليون دولار من نصيب الجيش .

وأنشأ الشاه قاعدة في بندر عباس ب ٢٠٠ مليون دولار وأخرى في شاه بيهار ، ب ٦٠٠ مليون دولار، وحصل على تسهيلات بحرية في جزر المحيط الهندي ، وتدخل الى جانب السلطان قابوس في عمان (وكان احد أهداف التدخل تدريب الجيش الايراني على القتال) .

وأدى الانفاق العسكري المتضخم الى عجز بلغ ملياري دولار هذا العام رغم كل خرافية المداخيل النفطية الايرانية ، بل ابتكرت عقلية العسكريتاريا الايرانية شكلا جديدا من التبادل عرف ب «المقايضة» : ايران تقدم النفط لضآلة وجود النقد في يدها ، والولايات المتحدة وأوروبا الغربية تقدمان السلاح .

ان هذا الاهتمام الفائق بالجيش الايراني لا يجد كامل

تفسيره في الاخطار على ايران ، ولا حتى في أطماع ايران ، إذ ليست الاخيرة بحاجة لبناء هذا الجيش اللجب كي تحقق رغباتها في امارات الخليج الضعيفة ، بل هو اولا بأول ، عائد لتقوية دور الجيش في المجتمع الايراني بوصفه جيش الشاه ، وامتدادا لطبيعة دولته الطغيانية حيث لا تلعب البورجوازية دورا سياسيا يذكر ، بل لا تقدم نفسها الا عبر الشاه .

ورغبة النظام المعلنة في جعل قوة الجيش الحالية تعوض عن المهانة التي لحقت به وبالبلاد عام ١٩٤١ على يد «القوى العظمى» ترتد بسرعة فائقة لتكتسب معنى الشوفينية العرقية والعداء لقوى التقدم في الداخل ، فهذا الجيش مناطة به مهمة تاريخية ترجمها الجنرال زاهدي بلغة واقعية حين انقذ الشاه «انقلابيا»، كما وظهر قبل ذلك ان البورجوازية (الوطنية) ما ان تقرر انتزاع موقع الصدارة في الحياة السياسية حتى تصطدم بالجيش (وهذه عبرة موقف مصدق الذي اراد سيطرة الدولة (البورجوازية) على الجيش عبر تعيين نفسه وزيرا للحربية ، بدل ان يكون الجيش رمزا للسيطرة الشاهنشاهية على المجتمع بكامل طبقاته وقواه) .

وذلك ما يفسر ان مراهنة الشاه الاخيرة هي دوما على الجيش ، وقد ظهر هذا مؤخرا من خلال تعيين قائده الجنرال علي اوفيسي حاكما عرفيا واعلان حالة طوارىء في البلد .

أن الجيش هو البورجوازية المفترضة من جهة وهو ليس «طبقة» لجوجة من جهة اخرى .

وتأتي «السافاك» في الموقع الثاني وهي «منظمة امن الدولة» التي انشأها الجنرال بختيار :

فالسافاك ، وهي اشهر من نار على علم ، قد منحت اهمية استثنائية لوزارة الداخلية الايرانية لا تتعادل معها سوى اهمية وزارة النفط بعد ١٩٧٣ ، اذ يبلغ عدد العاملين في هذا الجهاز

خمسين الفا في أقل تقدير .

وقد ارتفعت حصة السافاك والبوليس في الموازنة العامة بين ١٩٧٧ و١٩٧٨ من ٥٦،٣ مليار ريال ايراني الى ٧٤،٧ مليارا .

ويبلغ تسلل السافاك الى كل شيء حدا خرافيا : الجيش ، الطلبة ، رجال الدين ، الاحزاب بحيث انه لم يترك الشيء الكثير للاكتشاف عن ٣٥ مليون ايراني .

وتدير السافاك شبكة بوليسية يحسب لها حساب في الخارج حيث يتواجد الطلبة الايرانيون .

ومن ثمار عملها ان هناك من يقول بوجود ٣٠٠ الف معتقل سياسي في ايران . والمؤكد على الاقل ، ان ايران هي من اكثر بلدان العالم وحشية وفظاظة ، وسجونها من اكثر سجون العالم سعة ، واحصاء الانفس يجري على قدم وساق .

وهذا ، ربما ، ما أهّل طهران لان تكون المقر الاول للاستخبارات الاميركية في المنطقة . ففي شهر ايلول عام ١٩٧٤ عقد فيكتور مارشين مؤتمرا صحافيا في لندن بمناسبة صدور الكتاب المشترك الذي أعده هو وجون ماركس عن عمليات (السي . أي . أي) في العالم ، والرجلان مسؤولان سابقا فيها .

وأشار مارشين في ذلك المؤتمر الى ان الوكالة نقلت مركزها من اثينا الى طهران نظرا «لاهمية ايران ولتغيير النظام في اليونان» .

وفي سياق التصدي لاية عقلانية اجتماعية تحاول ان تحكم «المجتمع الحديث» يبرز دور شاكوكيشان او رعاع البروليتاريا الرثة المسلحة التي رأينا مؤخرا شبيها لها في تركيا تحت اسم «الذئاب الداكنة» .

هذه الفئة التي اقتلعتها على دفعات حملات النزوح الى المدن ، والبقاء على هامش الصعود الاجتماعي المقلوب للعاصمة طهران ، والسكن في أحيائها الجنوبية تحديدا ، تتمتع بتقاليد موروثة ، متضخمة في الدفاع عن النظام ، وهي التقاليد الوحيدة

التي تتمتع بها .

فقد اشتراها الروس في بداية القرن واستعملوها للدفاع عن الشاهات الرجعيين ، وعملت بحماس ضد «الدستوريين» بعد انقلاب محمد علي شاه في ١٩١٠ ـ ١٩١١ ، وجيَّشها واعتمد عليها رضا خان في السنوات الاولى من عهده ، وعاودت الاشتراك بفعالية في «التحرك الشعبي» الذي سبق انقلاب زاهدي ضد مصدق عام ١٩٥٣ .

وتتألف هذه الفئة ، حسب ارقام ١٩٧٣ ، من نشالين وقوادين يتسلط عليهم التخدير الدائم او المتقطع ويزيد عددهم عن ٥٠ الفا ، ومهربين محترفين يوازونهم عددا تحميهم السلطة وتؤمن غطاء لعملياتهم ، وآلاف المومسات اللائي يؤدين خدمات متفاوتة لجهاز السافاك .

ويؤتى بهؤلاء لقمع المظاهرات او للتظاهر تأييدا للحكومة ، كما ويوزع عليهم السلاح حين يدعو الامر لذلك .

ان اختراق المجتمع والتعدي على قوانينه المفترضة يجريان بألف طريقة وطريقة في ايران ، كاشفين كيف يكون بوسع التأخر واللاعقلانية حماية التغريب والدفاع عنه ، كما يكون بوسع فاشية غارقة في التخلف والبربرية ان تدعي الابوة لآخر مكتسبات الحضارة .

هذا الاستغراق في التأخر لا يمنع الشاه من التيمن بالغرب في اقصى حالته الامبريالية . فتحت ضغط الاوهام الكبيرة كوهم النموذج الياباني وغيره تمارس في ايران عمليات تسليفية كبيرة وتخصص رساميل متزايدة يتم تصديرها لاجل شراء اسهم في مجمعات صناعية غربية وانشاء شركات استثمار مختلطة (ناهيك ببناء الجيش العرمرمي) .

ويدعم الشاه في الاطار نفسه حزب «بان ايرانيست» الذي ظل حزبا معترفا به حتى اعتماد صيغة الحزب الواحد ، وهذا الحزب تنظيم عسكري يقول بضرورة السيطرة على الخليج وضم

البحرين بوصفها «المقاطعة الـ ١٤ من ايران» من ضمن مقولة التفوق الفارسي .

ان محمد رضا الذي استعيد عبر انقلاب عسكري هو كأبيه الذي صعد به انقلاب ١٩٢١ وقد ورث عن ابيه نشوة فاشية ، ترجمت نفسها في بعض الرموز البشرية للسلطة ، من الجنرال فضل الله زاهدي الذي نفذ الانقلاب الاسود ، وكان قد اعتقله البريطانيون في الحرب الثانية لصلته بالنازيين ونفوه الى فلسطين ثم الهند ، الى جعفر شريف امامي رئيس الحكومة التي سبقت الحكومة العسكرية الحالية ، الذي «تعاون» مع النازيين.

وتنعكس معطيات التأخر على الشعار العريض الواسع الذي يجد اجماعا شعبيا وهو حل التناقض مع ديكتاتورية الشاه اولا، فالبدلية الكاملة عن البورجوازية جعلت المضمون الطبقي للشعار مبسطا يذكّر بشعارات «الارض والخبز والسلام» التي اعتبر البلاشفة الروس انها هي المهام التي على كيرنسكي ان يحققها ، فلما لم يحققها حققوها هم .

والتركيز على ديكتاتورية الشاه والقبول بشاهنشاهية دستورية كما طرح مصدق وكما يطرح بعض «معتدلي» حركة رجال الدين ، يجعلان الشاه اكثر احتياجا لزواج قسري من ايران ، ويفسران تركيزه المضاد على دوره الشخصي، خصوصا انه جاء الى الحكم ضعيفا وبشروط الانكليز بعد رحيل ابيه ثم جاء اليه بعد انقلاب زاهدي ضعيفا مرة اخرى وبشروط الاميركان .

لكن المهم في ما يعنينا ، ان كيرنسكي الروسي لم يستطع ان يحقق تلك المهام البسيطة ، فهل يستطيع رجال الدين الايرانيون ذلك ؟

الفصل الخامس

توده ، الشيوعية ، روسيا ، الصين(*)

ابان الثورة الدستورية عامي ١٩٠٥ و١٩٠٦ عرفت ايران محاولة أولية لتقليد نموذج سوفياتات ١٩٠٥ في روسيا . انحصرت تلك المحاولة في كانجامينا ، ولم يقدم حتى الان تفسير لهذا الشذوذ المبكر .

على ان أجواء عمال النفط في باكو القيصرية لم تكن بعيدة عن ايران ، فأوصلت شحنة من الحماس لاحراق العالم القديم

---

* نشرت في «السفير» ٢٣-٩-١٩٧٨ .

وصارت خليطا من وعي شيوعي ـ علماني ـ جذري في شمال ايران .

كانت تلك الشحنة الروسية تمثل استعادة لاجواء الثورة الدستورية غير المتبلورة واستمر التنافر بين وعي ديمقراطي ووعي اشتراكي في «الحزب الشيوعي الايراني» الذي اسسه عام ١٩٢٠ بعض المثقفين الراديكاليين ومتنوري عمال الشمال .

وبدت النشأة الاولى تشكو التباسا آخر بين ما هو وطني وما هو «مستورد» ، اذ في السنة نفسها سجل قيام جمهورية جيلان الثورية تحت ظل جيش الثورة البلشفية الاحمر .

طبعا كانت هناك قوى ثورية محلية لكن تلك القوى لم يكن بوسعها اقامة جمهورية ثورية دون الجيش الاحمر ، ومذ"اك ظهر ان الجيرة الثورية يمكن ان تكون مدعاة للخسارة وليس فقط مدعاة للربح .

وحكم جيلان تياران : القومي المحافظ المعادي للامبريالية يقوده كوشيك خان ، والشيوعي المتعاطف مع ثورة اوكتوبر والآخذ بمثالها يقوده سلطان زيد واحسان الله خان .

وفي مناخ الزخم البلشفي الاول ، طرح شيوعيو جيلان ما لم يستطع ان يتحمله قوميوها من حيث عمق الاصلاحات الاجتماعية ، بل طرحوا ما لم تستطع ان تتحمله شعوب شرقية مؤمنة من حيث اغلاق المساجد ودعوة النساء لاهمال الحجاب وغير ذلك .

وعملت الخلافات بين قوى الجمهورية على إضعاف الجمهورية الوليدة لكنها لم تكن سبب انهائها (كما انها لم تكن سبب انشائها) .

فآنذاك صعد رضا خان مؤيدا من الانجليز وحاملا مشروع توحيد قسري للبلاد وانكفأ الجيش الاحمر فيما لعبت الخلافات آخر الادوار في مأساة حتمية .

لكن تلك النهاية لم تقض على الشيوعية في ايران . ففي ١٩٢١ عقدت الاممية الشيوعية الثالثة «المؤتمر الاول لشعوب الشرق في باكو» الذي حضره الشيوعيون والديمقراطيون المتعاطفون مع البلاشفة من أقطار آسيا كافة وتمثلت ايران بـ ١٩٢ شخصا فيما لم يتمثل العرب ، على سبيل المثال الا بثلاثة اشخاص(١) .

كانت المرحلة تسجل «خيانة الاممية الثانية» وانكفاء الطبقات العاملة الاوروبية للاندراج في دولها والتصالح مع برلماناتها . فاتجهت الاممية الثالثة الناشئة التي أسسها لينين وتروتسكي وجهة «شعوب الشرق» القادرة على اخراج الثورة الروسية من حصار تتعرض له .

على ان الاتجاه نحو الشرق لم يكن حتى ذلك الحين اتجاها بديلا عن وهم الثورة الاشتراكية في اوروبا ، وظل البلاشفة يعاملون الشرق كطاقة وظيفتها ان تحرك الآلة الغربية من جديد. وعبر ذلك عن نفسه بتسليح الاحزاب الآسيوية بنسخة غربية من الماركسية : موقف جذري في رفضه للدين والتقاليد وطبقية صارمة لا تلين الا امام اجراء «حضاري» يقدم عليه رضا خان او كمال اتاتورك .

ولم يتسن للشيوعيين الايرانيين ان ينجوا من مذبحة رضا خان عام ١٩٣٠ . فالمشروع البريطاني للسيطرة على الشرق ولد مشروعا عائليا للامساك بايران من رأسها حتى القدمين .

وهكذا ذبح من ذبح ، وأودع الباقون في سجون رضا شاه، ولم يخرجوا منها حتى ازاحته عن السلطة عام ١٩٤١ .

---

١ - الوقائع الكاملة للمؤتمر منشورة في «المؤتمر الاول لشعوب الشرق - باكو ١٩٢٠» ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٢ .

لقد قدمت روايتان عن نشأة حزب «توده» (الجماهير) في تشرين الاول عام ١٩٤١ ، الاولى تقول ان ٥٣ شيوعيا كانوا في سجون رضا شاه هم الذين أسسوه ، وان الـ ٥٣ هؤلاء جميعهم من المثقفين . اما الرواية الثانية فتقول ان مؤسسيه كانوا ليبراليين جذريين مطعمين ببعض الشيوعيين الذين خرجوا من السجن ، ومن بينهم الدكتور ايراني الذي يعتبره الحزب مؤسسه الرسمي .

مرة اخرى سجل على الشيوعية الايرانية انها ولدت في شمال ايران وفي فترة زمنية كانت تسمح للاتحاد السوفياتي بلعب دور متزايد في بلدان حدوده الجنوبية .

بل ويمكن ان يسجل تحفظ آخر هو انها لم تنفصل انفصالا كاملا عن الليبرالية الغربية في مجتمع اسلامي .

ومرة اخرى كان للجيرة الثورية كلفتها . ففي حزيران ١٩٤٢ وقعت معاهدة تحالف بين الاتحاد السوفياتي وبريطانيا تطال التعاون بينهما في ايران ، وأصبح مطلوبا بمقتضاها من ايران ان تسمح للحلفاء باستعمال وسائل مواصلاتها كافة ، وأن تتحمل على ارضها بقاء اطول لجيوشهم .

قد يقال ، وهو قول ينطوي على بعض الصحة ، ان ضغط مواجهة النازية في العالم يفرض اجراءات كهذه ، لكن التفاوت بين وضع الحلفاء ووضع الوطنيين الايرانيين يسمح لهؤلاء الآخرين بأن يفكروا بطريقة مختلفة .

وعلى اية حال فالسجال الايراني هنا يشبه سجالات كثيرة عرفتها بلدان «العالم الثالث» في فترة الحرب والتحالف السوفياتي مع الاستعمار القديم .

وفي كانون الاول ١٩٤٣ اجتمع تشرشل وروزفلت وستالين او «الثلاثة الكبار» في طهران. وكان تعيين طهران يوحي انها الاجدر بالوفاق المبكر ، فهل يعقل ان يكون منبر الدعوة للوفاق متنكرا له ؟

واتسع حزب توده اتساعا عظيما في تلك المرحلة من الوفاق طارحا برنامجا ذا طابع ليبرالي تقدمي قربه من المثقفين وعمـال النفط في عبدان وعمال الحياكة في اصفهان بوجه خاص .

وخاض الانتخابات التي جرت عام ١٩٤٤ حاصلا على ثمانية مقاعد .

لكن مع نهاية الحرب وقيام جمهوريتي اذربيجان ومهابـاد تغيرت الصورة . فالجمهوريتان الصغيرتان قامتا في اطـار المحاولات الدولية لفرض وقائع جديدة على عالم ما بعد الحرب الثانية، ولعب الاتحاد السوفياتي لعبة تحسين موقعه التفاوضي في مواجهة حلفاء أشرار وهي لعبة لم تتوقف حتى الستينيات .

بهذا مثلت ايران حالة يونانية اخرى ، وأدرك حزب تـوده سريعا ان العواطف الايرانية لن تقبل بارتياح الاطار السياسـي الذي تكونت الجمهوريتان الثوريتان فيه . ومن هنا اقام بعض المسافة بينه وبينهما فسمى فرعيه في الجمهوريتين ب «الحزب الديمقراطي فياذربيجان» و«الحزبالديمقراطي في كردستان».

وكان ملفتا للنظر بشكل دائم ان توده لم يطور نظرية ايرانية خاصة عن الاقليات القومية في بلد لا يتجاوز عدد الفرس فيـه ٤٠ بالمئة من السكان فيما ينقسم باقي الشعب الى صحـن فسيفسائي من القوميات .

ذلك التعاطي الغربي مع ايران زاد في الاستعداد لاتخـاذ مواقفمتضاربة لا بوصلة لها سوى السياسية السوفياتية . ففي فترة الضغط على ايران من الخارج يصبح توده «لينينيا» مـع تقرير المصير للشعوب الصغيرة ، وفي فترة العمل الطبيعـي يركز على برنامج موحد للتغيير في ايران ينطبق على ملحقاتهـا القومية فيبدو «لوكسمبورغيا» حتى لو أدرج بندا لتقرير المصير.

لقد استقر الامر لمحمد رضا بهلوي خليفة ابيه ، ولرئيس حكومته ، قوام السلطنة الذي اختص منذ العشرينيات فـي

العلاقة السوفياتية الايرانية نظرا لكونه مفاوض رضا شاه مع الجيران الشماليين .

وفي ايار ١٩٤٦ اتفق قوام السلطنة مع ستالين على سحب الجيش السوفياتي من اذربيجان ومهاباد مقابل اعتراف ايراني بالجمهوريتين وادخال ثلاثة من حزب توده الى الحكومة .. وامتيازات بترولية للاتحاد السوفياتي في شمال ايران .

لكن الشاه الجديد كان لا يكف عن الصراخ في المنتديات الدولية طالبا الضغط على السوفيات للانسحاب من الشمال ، وكانت ارتباطاته البريطانية التي بفضلها ورث أباه ، تكشف الكيفية السياسية التي ستحركه .

هذا وذاك غابا عن ستالين وتوده . وبعد الاتفاق بقليل أقيل الوزراء الشيوعيون الثلاثة وفي شباط ١٩٤٩ نزعت شرعية حزب توده .

وهوجمت الجمهوريتان الصغيرتان ، فانهارت دولة اذربيجان وبقي جزء منها ضم للاتحاد السوفياتي وحوكم وشنق غازي محمد رئيس دولة مهاباد الكردية فيما هرب الى الاتحاد السوفياتي أبرز قياداتها العسكرية .

لقد ترك حزب توده وحيدا بشكل مأساوي امام قمع الشاه والانجليز مما «قاد الى ازمة ايديولوجية حادة وتفسخ تنظيمي ملحوظ» وعرف الحزب بين عامي ١٩٤٦ و١٩٤٨ نقاشات ايديولوجية ساخنة كان يرافقها ويتلوها نشوء موجات من الخوارج والمنشقين .

واستطاع المناخ الوطني والديمقراطي الذي تلا الحرب بقيادة مصدق ان يطرح قضية «الديمقراطية والديكتاتورية» على نطاق واسع ، وفي هذا المناخ وبالشعارات هذه عاد توده يقترب شيئا فشيئا من الصدارة ، حتى استطاع ان يحشد حوالي ٢٠ الف طالب ومثقف في مهرجان عقد للاحتفال بذكرى مؤسس الحزب الدكتور ايراني .

وفي كانون الثاني ١٩٤٩ دبر الشاه محاولة لاغتياله نسبت لعامل متعاطف مع الحزب ، وبدأت حملة اعتقالات واسعة جعلت توده ينتقل الى العمل السري ، وبعض قيادييه يهربون الى الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية .

كان وراء هذه الخطوة اتجاه الشاه لاجراء انتخابات عامة في صيف ١٩٤٩ وزيارة قام بها للولايات المتحدة في نهاية ١٩٤٨ وتلويح بالعصا لمعارضة مصدق البرلمانية كشف عنها بعد قليل اتخاذ الشاه لاجراءات توسع سلطته على حساب البرلمان المفترض .

وبعد تحريم توده استمر العمل تحت غطاءات تنظيمية مثل «مناضلي السلام» وغيرها ، لكن الغطاء لا يعوض الاصل ، وهذا ما ترك ساحة العمل الوطني احتكارا لمصدق وحده .

وأخذت علاقات الشيوعيين بمصدق سبلا متعرجة متغيرة شارك الطرفان في تعكير صفوها :

«كان حزب توده السري عام ١٩٥٠ يحتقر حظوظ النجاح التي تهيىء الحركة القومية السريعة النمو نفسها لها ، ونظر الى تلك الحركة بوصفها اولا بأول نتاج التناقضات الداخلية بين الطبقات الحاكمة : اما صراع بين المصالح الاميركية والبريطانية او تنافس بين البلاط واليمين الرجعي . والمؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي في اوائل ١٩٥٢ كان شاهدا على خطاب سكرتير الحزب الشيوعي الايراني حيث اعتبر مصدق عميلا اميركيا «يسعى لانتزاع البترول من البريطانيين» .

والحقيقة ان مصدق لم يكن حاسما في تعاطيه مع الاميركان حتى الفترة الاخيرة ، شأنه في ذلك شأن الوسطيين من القادة الوطنيين في «العالم الثالث» كذلك لا يستطيع احد ان يستبعد وجود نوايا اميركية بالمراهنة على مصدق ضد الاستعمار القديم كما روهن على عبد الناصر في فترة من الفترات .

لكن هذا شيء ، والموقع الموضوعي لمصدق (وعبد الناصر) شيء آخر ، والتأخر عن ادراك الشيء الآخر أضر اضرارا شديدا بالشيوعيين وبمصدق وبمهام التحرر الوطني على العموم .

ومرة ثالثة تخوف الحس الشعبي الايراني من هذا التزامل الزمني بين موقف توده وبعض المقولات السوفياتية الحذرة من قيادات البورجوازية الصغيرة والوطنية في العالم الثالث آنذاك. فالستالينية المسكونة بهاجس الحصار وبناء الاشتراكية في بلد واحد ، راحت تنظر لفاشية جديدة تصل عن طريق الجيش الى السلطة ، وهناك تشكل اداة في عملية الاختراق الامبريالي الاميركي الصاعد .

ولاجل احراج مصدق قدم توده مسودة برنامج في اواسط عام ١٩٥٢ تميزت لاول مرة بالحنبلية الماركسية : الاطاحة الثورية والعنيفة بالملكية ، انشاء ديمقراطية شعبية واعادة توزيع الارض بدون تعويض ، وحق تقرير المصير القومي للاقليات .

كان في تلك المسودة قدر من المزايدة رغم انه كان بالامكان تجنبها ، الا ان التحذير الذي انطوت عليه المزايدة كان ضروريا، اذ الولايات المتحدة بدأت تراهن على الدخول من ثقب التناقض بين البريطانيين ومصدق ، فنزل حزب توده الذي صلّب تنظيمه انسري في مظاهرات معادية للولايات المتحدة والبنك الدولي (الذي اقحم نفسه في التسويات النفطية لحمل مصدق على التراجع عن التأميم الكامل) .

وفي انتفاضة تموز ١٩٥٢ اي حين حاول الشاه ان ينحي مصدق اقتنع الشيوعيون بوطنية هذا الرجل ، وكانت «الجبهة الوطنية» اصبحت اكبر من ان تتجاهل ، واكثر جذرية من ان يغرر بها اميركيا كما توهم توده فوقف الشيوعيون ومصدق معا في خندق واحد .

اما مصدق فارتكب بدوره اخطاء لا يستهان بها بعد انتفاضة تموز ، وكانت اخطاؤه نموذجية من موقعه الاجتماعي

والايديولوجي .

وفي عام ١٩٥٥ اي بعد انقلاب زاهدي والانهيار الجماعي بعامين ، ادرك قياديو توده «كم كانوا مخطئين حين تجاهلوا وسط الجبهة ورفسوا يسارها الحقيقي غير الشيوعي» . وأعاد هؤلاء تقييمهم الخاطىء للجبهة الوطنية الى «قلة الفهم الواضح للمجتمع الايراني ومميزاته الثورية» ولسيطرة «الفئوية اليسارية»، ف «هذه العوامل مجتمعة منعتنا من التعاون مع القوى المعادية للاستعمار ومن توظيف احتياطي القوى الثورية ، والاستفادة من التناقضات الداخلية العديدة في المجتمع . ومن الواضح الان انه كان علينا ان ندافع بقوة عن شعار الجبهة المتحدة مع القوى المعادية للامبريالية كافة ، وأن نحث بشكل مستمر الجبهة الوطنية بوصفها الممثل السياسي للبورجوازية الوطنية كي تتبنى هذا الشعار على قاعدة برنامج مشترك مقبول من جميع الاطراف» .

لكن اذا كانت يسارية توده قد سبقت الطرح الجبهوي ، فتحفظ مصدق كان يقف متخلفا عن الجبهوية كما تطلبها الجماهير، بدلالة النمو الهائل الذي عرفه توده ابان طرحه اليساري هذا ، فقد تحول في ظل مناخ ديمقراطي وفره مصدق الى اقوى احزاب «الجبهة الوطنية» وهو عامل يجعل الخلاف مبعثا للسخرية .

لقد قدّم ليون بلوم مرة صورة دقيقة عن علاقة الشيوعية الفرنسية بموسكو :

«فالشيوعيون الفرنسيون لا يتبعون اوامر موسكو وليسوا مأجورين لها» ولكن لديهم «تبعية مشاعر تؤدي الى تبعية روحية» .

هذا الوصف ينطبق على الشيوعية الايرانية ومعظم الشيوعيات الاخرى ، والتبعية الروحية هنا كثيرا ما تقود الى تعامل غير محسوب جيدا مع الواقع القومي يلازمه خوف من

استعجال التاريخ على يد البورجوازيين الصغار .

وبمعزل عن اللحاق اليساري المتأخر، ساد التعامل الشيوعي مع مصدق شعور بأنه ضيف ثقيل الظل يتعدى على الاختصاص، وحذر من ان تكون الارضية الايديولوجية مثقلة بوزن الاوهام الطوباوية والمسبقات البورجوازية الصغيرة .

هذا مع العلم بأن عدد ضباط الجيش الشيوعيين ارتفع في عهد مصدق من ٢٥٠ الى ٧٢٠ ضابطا في أقل تعديل .

على اية حال ، فالهزيمة حلت بالجميع وفي كانون الثاني ١٩٥٤ اعتقل الشاه ٥٠ شيوعيا متهمين باغتياله فأعدم بعضهم وسجن الآخرين . وبعد اشهر كشف الجنرال بختيار رئيس الاستخبارات العسكرية امر التنظيم العسكري لتوده والذي بوشر بانشائه منذ عام ١٩٤٢ فحكم على ٧١ ضابطا بالاعدام و١٩٢ بالاشغال الشاقة مدى الحياة و١١٩ بالسجن ١٥ عاما و١٦٢ بمدد تتراوح بين ٣ و١٠ سنوات ، ونفذ الاعدام ب ٢٣ ضابطا في اليوم الذي عرضت فيه اتفاقية الكونسورتيوم النفطي الجديد امام البرلمان .

وبعد السجن والقتل والنفي الى احدى جزر الخليج تدنت عضوية الحزب «الى عدد يتراوح بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ حسب أرقام كانون الثاني ١٩٥٤» وكان طموح الشاه للحصول على الحد الاقصى من الدعم الاميركي يستدعي المزيد من التهويل بالخطر الشيوعي وتقديم أفواج متتالية من الذبائح .

وفي ١٩٥٥ اعترف الحزب بصحة كلام السلطة عن اضمحلاله ، وفي ١٩٥٨ أعلن بعض قادته المنفيين في المانيا الشرقية انه لم يعد في ايران تنظيم لتوده ثم بعد خمس سنوات جعل توده مقره الرئيسي في اوروبا الشرقية وحظي باذاعتين تبثان وتنشران خط الحزب في المنفى .

في أواسط الستينيات ومع انتقال الصين الى تعميم تجربتها بدأت نويّات طلابية في الخارج تدين حزبها على انه

«تحريفي» لرفضه الكفاح المسلح ولعدم اعادة تنظيمه بقيادة «مناضلي الداخل» وتنتقد طبيعة العلاقات بين ايران والاتحاد السوفياتي الذي يعتبره توده منارة الثورة العالمية .

فمن المعروف ان الشاه زار موسكو في العام ١٩٥٦ قبل ان يكمل غسل يديه من دماء الشيوعيين ثم زارها في ١٩٦٥ ، وفي عام ١٩٦٧ اشترى اجهزة عسكرية قيمتها ١١٠ ملايين دولار ، ووقع اتفاقية اقتصادية قيمتها ٢٨٠ مليون دولار تتضمن بناء مصنع صلب في مدينة اصفهان ونقل كمية من الغاز الايراني الى الاتحاد السوفياتي بالانابيب ، وقد تلا الاتفاقية مجيء ١٥٠٠ خبير سوفياتي الى ايران للمساعدة على انجاز الجانب الفني من الاتفاقية ... واستمرت العلاقات الثنائية في تحسن متنام توجت بعد ذلك باتفاقية للتبادل الثقافي والاقتصادي بعيد المدى وقعت اثر زيارة موسكو الثالثة عام ١٩٧٢ .

المهم ان مجموعة طلابية صغيرة عرفت بـ «المنظمة الماركسية اللينينية الايرانية» (توفان) قد خرجت من توده وما لبثت ان انقسمت الى : «منظمة حزب توده الثورية» و«منظمة العاصفة الماركسية اللينينية» .

وكان ان شن توده عبر مراكز قصفه الاعلامي في اوروبا الشرقية هجوما متصلا واسعا ضد الكفاح المسلح و«البورجوازيين الصغار المتهورين» لصالح العمل السياسي طويل النفَس .

لكن فيما كانت هذه المجموعات الماوية تنتقد الصمت المطبق لدول «الامبريالية الاشتراكية» على اعمال الشاه ، بل و«تعاونها» مع الشاه ، جاءها النذير الصيني في آب ١٩٧١ باستقبال بكين للاميرة أشرف اخت الشاه ، والذي تلاه اعتراف ايران بالصين واقامة علاقات كاملة بين البلدين، ومن ثم في حزيران١٩٧٣ حين أطلق تشي بينغ في وزير الخارجية الصيني آنذاك تصريحات مؤيدة للشاه لا في سياسته الايرانية فحسب بل في سياسته الخليجية ايضا .

لقد خسرت الصين مصداقيتها قبل ان تبدأ بتكوينها ، وها هي تزكية الشاه عبر زيارة هوا كوفنغ لطهران ، والموقف الصيني الرجعي من الانتفاضات الاخيرة ، تكشف ان بكين سحبت المستوى الايديولوجي من التداول، تاركة وراءها مجموعات ماوية لا تزيد عن اصابع اليدين («دامفاني راد» و«اصحاب العمل السياسي» الخ) .

ان الذرائع التي تقدم كثيرة ، كأن يقال ان السوفيات فكروا انهم بتوسيع القطاع العام عبر المساعدة في صناعة الصلب يساعدون على خلق اتجاهات اشتراكية في النظام ، وان الصينيين لا يؤيدون التحركات الثورية في ايران لانها تتضارب مع سلم الاولويات في نظرتهم الى التناقضات العالمية .

لكن تلك الذرائع تبقى بمجملها باردة يهيمن فيها بالكامل مستوى الدولة السياسي على مستوى الحزب الايديولوجي ، ومرارات الماضي تمنع الاطمئنان الى اية دولة كبرى بدءا من السوفيات الذين تمنعوا عن شراء النفط من مصدق حين حاصرته شركات النفط العالمية وانتهاء بالصينيين الذين ارسلوا رئيس حكومتهم لتزكية نظام الشاه .

هذا قد يقود الى غياب المثال الكامل والنظريات البيانية عن الثورات ، والبحث بالمقابل عن خصوصية الثورة الايرانية خارج ثنائيات المدينة ـ الريف ، والبرلمان ـ الثورة ، وغير ذلك .

لقد قال مناضل ايراني : «ان الشاه استعمل علاقاته مع موسكو وبكين لخداع الجماهير الايرانية ونحن لن نكون ضحايا اعتبار ايديولوجي تخلى عنه الجميع . فالاوهام قد تساقطت والحسابات الباقية هي الحسابات السياسية الصارمة كأن نستفيد من التقارب الصيني ـ الايراني للحصول على دعم من الاتحاد السوفياتي » .

هذه هي الحدود المتاحة بعد اليوم وبهذا القدر من البراغماتية .

ان في تأكيد السلطة على شيوعية رجال الدين محاولة لعزل هؤلاء. فالشيوعية في ايران لا زالت خسائرها الجماهيرية تفوق مكاسبها ، وقد عرف الشاه كيف يستفيد من كل ارتياب أثارته الشيوعية والسوفيات او نسب اليهما ، فكثيرا ما قدمت «علمية» الاشتراكية على انها دعوة لمواجهة الاسلام .

لكن المؤامرة ما كانت لتمر دائما لولا نزعة شيوعية ، على تفاوتها في كل العالم الاسلامي ، الى تغييب الخصوصية القومية والدينية والميل الى ورع لا يقاوم تجاه الفكر الغربي ، وتبعية روحية للاتحاد السوفياتي تجعل الشيوعيين مرة يشردون يسارا ومرات يتبعون الجماهير متثاقلين متسائلين : أأصابت ام اخطأت ؟

لقد قدم توده في العام الماضي برنامجا «متقدما» على برنامج الخميني ، لكن العبرة ليست في البرنامج . فتوده من حيث الحضور ، حالة اكثر تظهيرا عن الحزب الشيوعي اليوناني الخارجي .

والاهم انه لا زال يعيش على هامش التناقض الرئيسي في المنطقة : تناقض الاسلام والبترول ، ويتعامل بالتالي مع ظاهرة رجال الدين كضرورة كئيبة في احسن الحالات ، منشدا الى نسخة اوروبية للماركسية تجعله يحافظ على لامبالاة رخوة ، وخوف شديد من اية ارادية استفزازية تتحدى الاعتراضات «الموضوعية» في العالم الثالث .

ان الشيوعية الروسية قد خلقت ماركسيتها الخاصة عن طريق التفاهم مع الفلاحين وتمثل كامل التراث الارهابي الثوري، وكذلك فعلت الشيوعيتان في الصين وفيتنام اذ تجاوزتا الماضي بشكل جدلي ، فالحذاء هو الذي يعدل ليلائم القدم وليس العكس كما اشار ماوتسي تونغ مرة .

الفصل السادس

من مصدق الى حركات الكفاح المسلح (*)

في تاريخ المعارضة الايرانية يبرز اسم تعود الوطنيون في «العالم الثالث» والتقدميون في الغرب على رسم هالة من نور حوله ، انه الدكتور محمد مصدق الذي قاد اهم صدام بين الدول المنتجة للنفط وشركات الاحتكار النفطي والرساميل والدول التي تتمثل بها في اوائل الخمسينيات .

فلئن كانت معركة المكسيك في سبيل انتزاع نفطها عام ١٩٣٧ معركة محكومة بزمنها السياسي ، فمعركة مصدق في

(*) نشرت في «السفير» ٢٤-٩-١٩٧٨ .

ايران جاءت كأول ترجمة اقتصادية لمرحلة ما بعد الحرب الثانية ، فمهدت للمعركة الاخرى التي خاضتها مصر الناصرية عام ١٩٥٦ حين أممت قناة السويس .

من هو الدكتور مصدق ؟

تعودت ايران حتى منتصف الخمسينيات على اعتبار كل من تعلم في الخارج فاقدا للسانه الوطني ولأية لغة توصله بالشعب. فالذي يدرس في اوروبا في النصف الاول من القرن هو بالتعريف ذو هوية طبقية وثقافية محددة .

اما مصدق فينتمي للقلة الاخرى التي قطعت خطوة الى الامام باتجاه ان ينشأ تحول بورجوازي غربي في الجوهر ، فكان تأثره بالغرب محكوما بطبيعة وطنية (دون ان يخفف ذلك من طوباويته بل ربما كان العكس أصح) .

مصدق ينتمي اذن للقلة الاخرى ، فقد تخرج من مدرسة العلوم السياسية بباريس وجامعة نيو شاتل بسويسرا ، دون ان يفقد لسان تخاطبه مع الشعب ، فانتخب عضوا في البرلمان بين ١٩١٥ و١٩١٧ وعين حاكما في العديد من المقاطعات كونه مثقفا «غربيا» يستحق ان يدخل النادي المحيط برضا شاه في وقت كان سفراء الثقافة الغربية لا زالوا دون العدد الذي يطلبه النظام .

لكن صداما وقع بين غربيته العميقة وغربية رضا السطحية. فالبرلمانية التي لا تنحني امام اي طاغية هي هاجس مقدس ولهفة دائمة عند مصدق ، وهذا ما انتهى به لان يترك الحياة السياسية في العشرينيات ثم يعتقل في أواخر الثلاثينيات وبعد ذاك يوضع في الاقامة الجبرية .

وعاد الرمز الاعظم للبورجوازية الوطنية الايرانية الى الحلبة بعد ابعاد رضا عام ١٩٤١ فانتخب نائبا عام ١٩٤٤ وقدم للبرلمان مشروعا يقضي بمنع الوزراء منمناقشة العقود والاتفاقات النفطية دون موافقة المجلس .. وفي ١٩٥٠ انتخب مصدق رئيسا للجنة

النفط الوطني في المجلس فدافع بشراسة وحماس عن التأميم وأوجد «جبهة وطنية» انضمت اليها احزاب سياسية ديمقراطية صغرى بعد ان صار مصدق رئيس حكومة ، وذلك في نيسان ١٩٥١ اثر اغتيال الجنرال رازمارا على يد «فدائيين الاسلام» وكان رازمارا أوضح رموز العداء للديمقراطية والتأميم في آن واحد .

بذلك تحولت «الجبهة الوطنية» الى اكثرية المجلس، فدعمت الحكومة الوطنية التي استمرت حتى آب ١٩٥٣ حين وقع انقلاب زاهدي ووكالة الاستخبارات المركزية الاميركية .

لقد كان مصدق متشبعا بالديمقراطية البرلمانية ، فهو ليس فقط رئيس الحكومة الوحيد المنتخب في ايران ، بل هو صرخة برلمانية في «عالم ثالث» لم يقيض له ان يعرف البرلمان .

لكن الصوت السياسي والتشريعي للبورجوازية في الغرب كان قويا لان الطبقة نفسها كانت قوية ، اما في الشرق فمطلوب من «البرلمان» ان يكون قوة تنضاف الى قوة الديكتاتور او الاقطاع او العسكر او مصالح «الاجانب» من اعداء البورجوازية الوطنية الوليدة .

وهكذا كان لا بد من بعض الاحتيال الايجابي او الاحتيال الثوري : فما حققه جمال عبد الناصر عسكريا في مصر اراد ان يحققه مصدق سلميا متلاعبا على تناقض البريطانيين والاميركان بعد الحرب العالمية الثانية التي سجلت صعود الولايات المتحدة .

وكان مصدق يعرف ان حساسية الموقع الدولي والنفطي لايران تفرض على حركة التغيير هذه ان تكون ملساء كالافعى وتسير على حد السيف ، فاكتسب البورجوازية الصغيرة وغالبية رجالالدين ومناطق الحرف الموروثة والنقابات المهنية القروسطية وهيأ نفسه للمعركة الحاسمة حول الجيش .

لقد قاتلت البورجوازية الوطنية مع مصدق لاكتساب دورها

السياسي في ايران ، هذا ما رمزت اليه برلمانية مصدق ومعركة الجيش ، وجرت المعركة في زمن كان الشرق قد بدأ يضع دور الغرب موضوع الجدل .

اما القيادات السياسية لهذه الطبقة والذين مثلتهم «الجبهة الوطنية» المتنافرة نسبيا ، فهم نتاج توسع طال الطبقات الوسطى في أواخر عهد رضا خان . ففي عام ١٩٣٤ على سبيل المثال ، اعلنت جامعة طهران عن استعدادها لقبول ٢٠٠٠ طالب في صف السنة التحضيرية ، فتقدم ٢٥ الف طالب بطلباتهم ورد النظام بطغيانيته المعهودة بأن أغلق الجامعة .

ومن موقع العداء للغرب والتعامل مع الثقافة ، بدأ هؤلاء ينصتون رغم التحفظ للماركسية «قدمت لايديولوجيات العالم الثالث الضمنية مادة تشهير بحق الامبريالية ذات اساس علمي» على حد تعبير رودانسون .

وزاد في الزخم المنصب حول مصدق ان «الاشتراكية الديمقراطية» او التيارات التي تقف بينها وبين تودة ، لم تتمتع بحظوة جماهيرية تذكر في ايران اذ بقيت احزاب تلك الاشتراكية حبيسة الاشكالية الثقافية ولم تستطع ان تتصالح مع «الشعب» .

هذا كان مصير الحزب الاشتراكي ذي الطابع الفابي الذي تقوقع ضمن حلقة من المثقفين فتجمد بهم وجمدهم ، وكذلك مصير «عصبة تودة الاشتراكية» (التيتوية) التي أسسها خليل مالكي في الاربعينيات ، و«حزب الشغيلة» الذي أسسه مظفر باقي في الخمسينيات وحزب «ازادي» (الحرية) الذي أسسه الدكتور احسان ارسنجابي فانضم الحزب بكامله تقريبا لحزب تودة الشيوعي ورفض مؤسسه الانضمام مفضلا ان ينتهي وزيرا للزراعة في حكومة الشاه .

ويروي احد المناضلين الايرانيين قصة مصدق بقوله :

«ثمة رئيس حكومة واحد فحسب ، هو مصدق ، استطاع

ان يتحدى الشاه بفعالية في ما يتعلق بالقوات المسلحة . ومع ان مصدق اصبح شهيرا في الغرب بوصفه وطنيا عنيفا معاديا لبريطانيا ، فانه كان معروفا كذلك على الصعيد الداخلي بوصفه دستوريا عنيدا مصمما على الغاء تدخل البلاط في الشؤون العسكرية . وإذ انشأ حركة جماهيرية (الجبهة الوطنية) ترمي الى تحقيق كلا هذين الهدفين فانه طرد البريطانيين اولا في ١٩٥٢ ، ثم حاول ان يسيطر على الجيش بتعيين نفسه وزيرا للحربية . وحينما قاوم الشاه استنجد مصدق بالشعب مباشرة ، وقد لبى الشعب بقيادة كل من الجبهة الوطنية وحزب تودة الشيوعي النداء فتدفق الى الشوارع وقاتل ضد السلطة ، وبعد ثلاثة ايام من سفك الدماء ـ ثلاثة ايام هزت العالم ـ ارغم الشاه على التخلي عن كنزه الثمين ، وللمرة الاولى نجح احد المدنيين في قطع خطوط القيادة المباشرة ما بين سلالة بهلوي وسلك الضباط » .

وأقال مصدق ١٣٠ ضابطا كبيرا فارتفعت هيبته الى السحب فيما بدا الشاه امام سعة التحرك الجماهيري كالبرغوث في ابط الفيل ، فولى الادبار الى الخارج .

لكن كان من الطبيعي ان ترى الولايات المتحدة في مصدق امكانية مزعجة تنمي الغرائز السيئة في الشرق الاوسط فتعمل على اجتثاث كل ما يترك ظلا على سيطرتها ، وبعد حساب المغارم والمغانم من قبل الطرفين «مضى مصدق الذي تعززت قوته بفضل انتصاره ـ والذي تجاهل من جهة اخرى ، الحاجة لتسليح أنصاره ـ يهاجم المؤسسة العسكرية بمجملها ، فأحدث تخفيضا كبيرا في مخصصات الجيش وخفض المجندين الى النصف وشكل ثلاث لجان للتحقيق في شائعات تتعلق باختلاسات في عقود الاسلحة (....) وعمل لتبيان ان الدستور قصد ان يكون الملك القائد الاعلى اسميا فقط . وإذ اقتنع الضباط بأنه

لن يقوم كيان للعسكريين من غير الملكية العسكرية ـ لا شاه ، اذن لا ضباط ـ فانهم شكلوا سرا لجنة انقاذ الامة من الاتجاه الجمهوري والفوضى الاجتماعية واقاموا صلات مع وكالة المخابرات المركزية الاميركية» وكان ما كان .

اذن كانت محاولة مصدق بمعنى ما محاولة عقلنة للمجتمع الايراني تقوم على الغاء بدلية الفرد عن الامة ، واستنهاض البورجوازية الوطنية لكي «تمثل» الامة كما يستدعي النموذج الغربي .

لكن ذلك لا يغفر شيئا في الحسابات التاريخية ، فلئن ارتكب توده اخطاء شنيعة قبل انتفاضة تموز ١٩٥٢ ، فبعد الانتفاضة تفوق مصدق في ارتكاب الخطأ ، وكان خطؤه محكوما على الدوام بنظرة بسيطة للصراع هي النظرة نفسها التي حالت دون تسليح انصاره .

لقد تعاطى مع توده من هذا الموقع تعاطيا مزدوجا «اذ استعمله في تقوية جبهته في المعركة ضد الجناح اليميني من المعارضة ، وفي اقناع الولايات المتحدة بأن حركته تشكل البديل الوحيد عن خيار الشيوعية في ايران » .

ورفضت حكومة مصدق مطالب الشيوعيين في اعتماد المقاومة المسلحة ضد الردة ، بينما امرت الجيش بقمع مثيري الشغب من عناصر توده في طهران ، وليس جديدا ان الحد الادنى من العداء للشيوعية يمكن ان ينقلب الى حد اقصى من العداء للوطنية . ومن ثقب هذه الدعاية استطاعت ان تنفذ الى الجيش قوى لا يزيد عداؤها لمصدق عن عدائها للشيوعية .

طبعا ان قدرا من الانتهازية اليسارية التي ظهر عليها توده خلقت قدرا اكبر من الحذر عند مصدق ، فطرح الاولون برنامج جبهة وطنية تغلب عليها مواصفات الحزب بغرض «جر مصدق الى موقع اكثر جذرية» وتمسك الاخير ـ بالمقابل ـ بحالة من اللامبالاة وترك الامور تسير على سجيتها .

لقد خاض مصدق معركةضد الخارج الامبريالي والداخل الشاهنشاهي ولم يوفر لها العناصر الجماهيرية المطلوبة . واستطاع الخارج المهزوم ان يثأر لنفسه من الشرخ الشعبي الذي ترك في الداخل ، فالحساسية والدقة اللتان يتطلبهما وضع ايران لم ينظر اليهما مصدق الا من زاوية سياسية فوقية، واقعا في ما وصفه فريدريك انجلز مرة ب «الغباء البرلماني» حيث الحق والشكل العقلاني في تقديمه يختزلان كل العوامل الاخرى ولا يتركان موجبا لها .

وجريا على النمذجة الغربية أهمل الريف اهمالا كاملا ، واكتفى بطبقات المدن الوسطى والدنيا ، على اهميتها .

ان البورجوازية الوطنية التي صعدت بصعود مصدق ، لم تستطع ان تحافظ على الموقع الذي احتلته ، لانها في ضعفها وتشبثها بأساليب القتال «المحترمة» كانت ادنى من المطلوب للبقاء في الحكم ، وهكذا قادت محاربة الغرب بذاته الى العجز عن «عقلنة» الشرق .

في هذا وقف مصدق في الوسط : استطاع ان يوجد لسانا للتخاطب بينه وبين شعبه فلم يكن واحدا من السياسيين المعزولين الغرباء في «العالم الثالث» لكنه لم ينفذ عميقا الى القوانين الخاصة المتمايزة للتطور الايراني فبقي ولو بنسبة ادنى حبيس الاشكالية الغربية . واستطاع مصدق ان يحارب الامبريالية لكنه لم يستطع ان ينتصر عليها ، واستطاع ان يصل الى الحكم ولم يستطع ان يحتفظ به .

بعد سقوط مصدق تم تأسيس الكونسورتيوم النفطي ذي الهيمنة الاميركية التي جاءت لتدعم الشاه بالمال والسلاح (ناهيك بالانقلاب) وترث الاستعمار البريطاني وراثة سلمية بعكس ما اعتقد بعض الوطنيين الايرانيين !

وبدأ الاقبال العلني على الاحلاف ، فوقعت معاهدة حلف

بغداد عام ١٩٥٥ ، وفي تلك السنة نفسها بلغ معدل الدخل الفردي السنوي في ايران ١٠٠ دولار مقابل ٢٧٦ دولارا في السعودية و١٦٦ دولارا في مصر حتى لا نقول ٢٣٤٣ دولارا للفرد الاميركي .

واذا كان الدخل الفردي لا يعكس الوضع الاجتماعي كما هو معروف ، الا انه يقدم لوحة عن التبعية الاقتصادية لاجمالي البلاد ، فقد أرسي اساس موضوعي لغزو كل تواجد كان للبورجوازية الوطنية ، فاذا الرساميل الاميركية تخترق القطاع انعام نفسه ، وتمتلك نصف اسهم الضمان الاجتماعي ، وتبلغ نسبتها في خطة التنمية الخمسية الخامسة (٧٣ ــ ١٩٧٨) ٥٤٧ مليون دولار .

لقد اكتملت هزيمة البورجوازية الوطنية والموقف الوسطي ، على المستويين الاقتصادي والسياسي .

ماذا عن «الجبهة الوطنية» بعد مصدق ؟

تتألف الجبهة الان من ستة احزاب متفرقة في مواقع سياسية وايديولوجية مختلفة نسبيا ، وقد حاولت ان تكتسب اشكالا تنظيمية سرية بعد ١٩٥٣ لكن التعب والانهيار كانا المصير المتربص على الدوام .

وفي ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠ بدات مرة اخرى مراهنات قيادي الجبهة على ديمقراطية الشاه البرلمانية ، يعززها وصول جون كينيدي الى البيت الابيض في واشنطن ، والآمال الشابة التي رافقته عند بعض «النخب» السياسية في «العالم الثالث» .

لكن «الامكانيات» الجديدة لم تفتتح مرحلة جديدة ، ورغم ان البعض طرح العمل العلني ورفع صوته مطالبا باطلاق سراح مصدق ، فالقمع الذي عرفه عام ١٩٦٣ ردا على الانتفاضة ، انهى مرحلة المناشدة العلنية، (علما بأن اصحاب «المناشدة» لم يواجهوا حملة القمع الا بالمزيد من التذبذب والارتباك) .

ان تغيرا وحيدا قد تحقق في تلك الفترة «السلمية» وهو

انعقاد مؤتمر «الجبهة الوطنية» الاول والاخير عام ١٩٦٢ في داخل البلد .

ففي ذلك المؤتمر ظهرت أقلية طلابية متحركة ميالة لتحميل المصدقية قدرا من الثورية يفوق طاقتها. كما فعل المونتيناروس الارجنتيني بعد ١٢ سنة مع البيرونية .

وكانت هذه الاقلية قد بدأت تكوّن أولياتها السياسية في اوروبا والولايات المتحدة حتى اذا فشل المؤتمر اعلنت عن نفسها «جبهة وطنية» جديدة ذات توجهات ماركسية - لينينية ، وبذلك كفت «الجبهة» كجسد سياسي عن ان تكون صوتا للبورجوازية الوطنية (نظريا على الاقل) .

ومنذ ١٩٦٤ توقفت نشاطات «الجبهة الوطنية» العلنية ونظمت مجموعات سرية اعتقل الكثيرون منها . وفي ١٩٧٠ بات لها فرع في الشرق الاوسط .

لقد اندرج تاريخ سريّ «الجبهة الوطنية» بتاريخ الحركة الطلابية والكفاح المسلح ، اما تاريخ البورجوازية الوطنية فلم يجد مذّاك رموزا له خارج دائرة بعض السياسيين الديمقراطيين شأن الدكتور كريم سنجابي احد وزراء حكومة مصدق والناطق الحالي باسم الجبهة ، وقد لوحظت مؤخرا الاطلالة الضعيفة للبورجوازية الوطنية وهي تلهث خلف حركة رجال الدين .

وتجمعت تيارات طلابية ذات أصول متعددة ، منها الشيوعي المنشق المتجه صوب الماوية ، والمصدقي العامل على دفع «الجبهة الوطنية» نحو اليسار ، والمسلم المؤمن بالجهاد ضد الشاه .

وكان الكفاح المسلح هو البديل المطروح على هذه التيارات.

وفي الحقيقة يصعب فصل تاريخ «الكفاح المسلح» في ايران عن تاريخ الحركة الطلابية ، ليس لجهة الاصل فقط بل لجهة الايديولوجيا ايضا ، اذ تم تقديم الكفاح المسلح بالحاح

طلابي زينه دواء لكل داء ، حتى اذا كانت الهزيمة كان الانسحاب السريع والانكفاء الى المرارة .

ان من البديهي ان تتواجه عقلانية الثقافة مع نظام على هذا القدر من اللاعقلانية . فالحركة الطلابية المتأثرة بنضال مصدق الوطني ، حملت بعد سقوطه كل مشاعل الطبقات والفئات التي قهرت وسلب منها لسانها .

لقد اهتم نظام الشاه بتوسيع الحقل التعليمي من ضمن توسيع الادارة وتأهيلها لاستقبال الوافد الاميركي بعد ١٩٥٣ مما سمح للحركة الطلابية ، باحتكار الحضور السياسي على نسبيته، وعلى اتسامها هي ، بالعفوية والبعثرة .

وبدأت حرب متاريس بين النظام والطلاب امتدت حتى عام ١٩٦٣ حين ظهرت القيادة الدينية ممثلة بالخميني فيما اتجه قادة الحركة الطلابية نحو التفكير بالكفاح المسلح .

ففي كانون الاول ١٩٥٣ قتل ثلاثة طلاب بقاعة المحاضرات في معهد طهران التقني ، وفي ١٩٥٤ اقتحم المظليون جامعة طهران، وفي كانون الثاني ١٩٥٩ هاجم الجنود مظاهرة للطلاب الثانويين، وفي ايار ١٩٦١ سحقت مظاهرة طلابية ، وفي ١٩٦٢ اقتحمت جامعة طهران وجرح ٨٠٠ طالب وطالبة .

اكثر من هذا : ان احد الاسباب التي جعلت الشاه يهرب الى «الثورة البيضاء» هو امتصاص الحركة الطلابية والتحدي المتنامي الذي كانت تطرحه .

ومشكلة المثقفين مع النظام لم تكن آنذاك مشكلة اقتصادية في اي وجه من وجوهها. فمن خلال توسيع الادارة «وتحسينها» زاد عدد الموظفين من حملة الشهادات الثانوية بين ١٩٥٦ و١٩٦٣ من ١٢ الى ٥٣ الفا اي من ٨ الى ٢١ بالمئة من مجموع الموظفين.

وبين ١٩٥٦ و١٩٦٦ ارتفع عدد الموظفين والبيروقراطيين المتعلمين بنسبة ٦٠ بالمئة من ٣٣٢ الى ٥١٤ الف . وهذا وفر مجالا افتراضيا واسعا للرشوة الاجتماعية والسياسية .

لكن ديكتاتورية الشاه وسياسته هما اللتان أوصلتا الحركة الطلابية في عام ١٩٧٠ لان تتألف من ١٩ الف طالب جامعي في الداخل و٤٠ الفطالب جامعي في الخارج، وكان ذكر «السافاك» كافيا لمنع الطالب من العودة .

وفي الخارج أسست «كونفدرالية الطلبة الايرانيين» التي كانت مسرحا من مسارح التفكير بالكفاح المسلح ، وفي الداخل ، بعد ١٩٧١ باتت المظاهرات الطلابية تقوم بشكل رئيسي لتأييد الكفاح المسلح والانتصار له على اساس ذوبان الحياة السياسية الطلابية فيه .

ومنى ذلك الجو الطلابي نفسه بحركات الكفاح المسلح في فيتنام وأميركا اللاتينية ، وقرأ ماوتسي تونغ وغيفارا . ونظر الى المقاومة الفلسطينية الصاعدة كملهم عظيم ، فعوض ذلك احباطه الناتج عن تردد «توده» و«الجبهة الوطنية» والعلاقات السوفياتية الايرانية .

لكن هل كانت حرب العصابات تعبر عن مظهر للحقائق في مناخ الانسداد والتراجع السياسيين ، أم كانت تعبر عن حتمية في الواقع الايراني ؟

بعيدا عن تجارب التنظيمات الصغيرة التي لم تتعد اصابع الكف ، تقدم تجربة التنظيمين الاساسيين «فدائيي الشعب» و«مجاهدي الشعب» جوابا غير مشجع .

لقد تشكلت «منظمة فدائيي الشعب» بنتيجة اندماج مجموعتين صغريين يجمعهما القول بالماركسية ـ اللينينية ، والكفاح المسلح . فبدت نموذجا من خليط فيه العنصر اللينيني والاقتداء بالمثال البلشفي ، وفيه التعاطف الماوي ، وفيه حرب العصابات المدينية .

وتميزت «فدائيي الشعب» على المستوى النظري بالدعوة لانشاء «تنظيم» يضم جميع «الماركسيين اللينينيين» ما عدا

حزب توده الذي نفيت عنه ماركسيته كونه لا يؤيد الكفاح المسلح ، لكن «وحدة القوى الماركسية اللينينية الثورية» ضاعت بين ان تكون حزبا (؟) وبين ان تكون «لقاء» (؟) سيما وان «فدائيي» اشترطت منذ البداية ان تلعب الدور القيادي في «اللقاء» .

ووقعت «فدائيي» في «طبقية» قادتها للمراهنة على «ان علاقات الرأسمالية الايرانية ستنمو وتتوسع ، ونمو الرأسمالية الايرانية سيوسع البروليتاريا من بين الكادحين» .

بل وقعت في تفاؤلية عمالية جعلتها تعتبر ان «الماركسيين انلينينيين الان قد يشكلون غالبية القوى الثورية للمجتمع وان هذا الجانب قد تقوى بشكل سريع . والآن نحن نشاهد تقلص القوى غير البروليتارية في الثورة لصالح قوى الماركسية اللينينية» .

لقد دشنت «فدائيي» بدايات الكفاح المسلح من خلال الهجوم على مركز الدرك في سياهكل والذي أعقبه قمع مكثف جعل المنظمة تنقل نشاطها الى المدن بالكامل .

وخسر مناضلوها بنتيجة القمع المتتالي عددا كبيرا فيما استطاع الباقون ان يتفادوا الابادة ويعيدوا تنظيم انفسهم دون ان يستطيعوا تفادي الانشقاق الداخلي بسبب الموقف من الكفاح المسلح بالذات .

وكعملية الولادة التي يصعب التكهن بنتيجتها قبل حدوثها، يصعب الان التكهن بـ «النموذج» النظري والعملي الذي سيتجه للاقتداء به من تبقى من المناضلين . .

اما منظمة «مجاهدي الشعب» التي نشأت في ١٩٧١ ايضا، فتختلف في أصولها عن المنظمة الاولى .

فالاجواء الطلابية التي انتجتها كانت متشبعة بالوعي الديني، وبالجو الارهابي الوطني المؤمن الذي أشاعته «فدائيين الاسلام» و«حركة تحرير ايران» الدينية ، لا بل ان بعض القادة السابقين

للتنظيم الاخير ، ومعهم بعض رجال الدين الشباب ساهموا في انشائها والاستشهاد تحت رايتها ، ومنهم بديع زادكان وسعيد محسن ومهدي وأحمد رضائي .

هذا ما اتاح لها ان تجد صدى شعبيا يتجاوز ما عرفته «منظمة فدائيي الشعب» خصوصا في وسط الاحياء المدينية .

وتلمست «مجاهدي» بعفوية اهمية ايجاد رابط ما بين الاسلام والفكر الاجتماعي المتقدم فتركت ابوابها مفتوحة امام الجميع ، وللحوار المتصل .

لكن العملية احبطت بفعل صراع «الماركسيين» و«المسلمين» داخلها ، حيث قام الاولون باعدام وابعاد الآخرين الذين بلغ عددهم نصف عدد التنظيم ! و«انتصر» الاولون بأن اعلنوا عام ١٩٧٥ ان المنظمة اصبحت «ماركسية لينينية» تدعو لانشاء «جبهة» قبل ان تتحول هي نفسها الى حزب ؟!

المهم «ان القمع الذي تعرضت له المنظمة مضافا اليه الخلاف الدموي بين نصفيها جعلها في وضع لا تحسد عليه وتحول «الكفاح المسلح» الذي كان في البداية حجر الكيمياء الى اصل العلة .

لقد شكلت حركات الكفاح المسلح محاولة أولية للخروج على بعض اساطير الدوغما ، لكنها هي ايضا عادت لتطرح ماركسية عمالية كيفما اتفق دون مبالاة بمطابقتها لواقع الحال .

ففدائيي الشعب تمثل «طليعة الطبقة العاملة» في الكفاح المسلح ، ومجاهدي الشعب تستأصل نصفها وتقبل بالشرنقة الضيقة فدى لـ «قيادة الطبقة العاملة» ناهيك بالوهم العمالوي التاريخي عند توده .

ان العقل الطلابي و«التمركس» في الخارج بعيدا عن التماس المباشر مع الوضع الايراني دفعا الى الامام مسألة البحث عن «النماذج» وجعلاه يطغى على البحث عن «الذات» فجاءت الطهرانية على حساب الفعالية .

وفيما كان المجرى التاريخي يساهم في تفكيك الآلة ، كثر حضور «نظري» يغطي ضعفا ماديا ، فهراطقة الماركسية لم يقطعوا قطعا كاملا مع الماركسية الغربية لصالح تأصيل ماركسي ايراني ، بل اكتفوا بالكفاح المسلح كزي ثوري جديد وبقي الرد على اي اعتراض ان لينين لم يقل شيئا آخر .

ومنذ البداية كشفت عملية درك سياهكل عن طريق هويات الشهداء والمعتقلين ان المقاتلين مثقفون يريدون «النيابة» عن الطبقة العاملة ، وفي احصاء لـ ١٩٣ شهيدا اعدمتهم السلطة تبين ان هنالك ٧٨ طالبا جامعيا و٢٩ مهندسا و٢٧ عاملا ، و١٩ موظفا حكوميا و١٦ معلم مدرسة ، و١١ طالبا مجندا ، و٦ اطباء، و٢ من المحامين ، و٢ من موظفي المكتبات .

وتقر فدائيي الشعب الاكثر عمالية ، بأن التنظيمات التي ادعت تمثيل الطبقة العاملة «لم تنجح اي منها بخلق ارتباط عضوي مع الطبقة العاملة» .

لقد تعرضت الطبقة العاملة الايرانية لما تعرضت له اللغة العربية في الجزائر . فمع مجيء الاستعمار الفرنسي توقف نمو هذه اللغة ، حتى اذا عادت مع التعريب الذي تلا الاستقلال ، وجدت نفسها تنطلق من نقطة متخلفة ، حوالي القرن عن تطور اللغة . وهكذا فتحت المقاهي والمطاعم بأسماء من نوع «مقهى مجلس المبعوثان» و«مطعم الاتحاد والترقي» الخ .

والطبقة العاملة الايرانية التي كانت تتشكل جنينيا في مجالات النفط وسكك الحديد والحياكة والبناء في عبدان واصفهان وطهران وتبريز ، تعرضت لتغييب كامل على يد القمع الذي تلا الاطاحة بمصدق عام ١٩٥٣ .

اذاك انقطعت البروليتاريا عن ذاتها ، ولم يرتفع صوتها المتعب حتى اوائل السبعينيات حين حدثت بعض الاحتجاجات والاضرابات في «معامل التبغ» و«معامل تجميع سيارات

المرسيدس» و«المجموعة الصناعية الوطنية» و«الحذاء الوطني» لكنها احتجاجات واضرابات ظلت هامشية تنتهي بحدود مطلبية تتحقق او لا تتحقق .

وفي فترة التغييب لم يكن بالامكان انشاء نقابات علنية كما استطاع الشيوعيون الاسبان ان يفعلوا في مناطق الشمال المصنعة ، فارضين على وزراء الداخلية اعترافا واقعيا بتلك النقابات «الممنوعة» .

اما النقابات السرية فتفقد مبررها ، بالتعريف ، اذ ليس بوسعها الاستفادة مما يفترض ان يتيحه القانون .

ونظرا لفقدان التواصل العمالي بين جيلين عماليين بسبب ضآلة العمل السياسي الموصل من جهة وشعور الجيل القديم الذي ناضل مع توده بالخيبات والهزائم من جهة اخرى ، بدأ «القطاع الاهم في الطبقة العاملة في ايران ، وبالتحديد اولئك الذين هم بين ١٨ و٣٠ سنة ، يتمتعون بأدنى مستويات الوعي الطبقي ، كما ان ثقافتهم السابقة (الفلاحية والبورجوازية الصغيرة) لم تستبدل بثقافة عمالية (....) أما الاعمال الجماعية كالاضرابات التي حصلت في العقدين الاخيرين فكانت محصورة ...» هذا الكلام منقول عن لسان احد شهداء ومنظري فدائيي الشعب .

وهيمنة الثقافة غير العمالية على الطبقة العاملة كانت تعمل هي ايضا في الاتجاه نفسه ، وتزيد من مصاعب التعاطي العمالي مع الطبقة العاملة ، خصوصا وان نشوء الرأسمالية الزراعية والهجرات المتتالية المستمرة من الارياف كانت تحيط هذه الطبقة الجنينية بمحيط فلاحي لا ينضب بشريا وايديولوجيا ، وفي المقابل عمل نمو الكومبرادور على حساب البورجوازية الوطنية بعد ١٩٥٣ على ضرب الكثير من قطاعات الاقتصاد المديني وخفض وتائر نمو الطبقة العاملة .

ان «العمالية» التي ارادت حركات الكفاح المسلح احياءها

كانت البديل النظري عن اي تأصيل للخصوصية الايرانية فيما يتعلق بالمسألة الدينية والاقليات وغير ذلك ، حيث يغرق التعامل مع هذه «الامور» بقدر كبير من العموميات التي اخذ بعضها عن ادبيات الثورة البلشفية وبعضها الآخر عن ادبيات الثورة الصينية .

على ان الخطأ يكون كبيرا حين يفترض المرء ان انهيار الكفاح المسلح يفسره عامل واحد وحيد هو ان ظلاما نظريا كان يحكم بنادقهم .

اذ عندما صعد الكفاح المسلح كان شاه ايران يصعد ايضا ويقمع ثورة ظفار ويحتل الجزر العربية الثلاث كاشفا عن انتقاله لاداء دور اقليمي واسع .

ففي ١٩٦٨ اعلنت بريطانيا انها ستنسحب بعد ثلاث سنوات من الخليج . وبدأ اعداد ايران لملء «الفراغ» في مناخ «مبدأ نيكسون» الذي يقول بتوليد امبرياليات فرعية تقوم بمهام الوكالة عن الامبريالية الام التي أثخنتها جراح التورط المباشر في الهند الصينية .

واستفاد الشاه في الفترة نفسها من ضعف حركة التحرر العربية اثر هزيمة حزيران ١٩٦٧ ومن ثم وفاة جمال عبد الناصر.

واذا كان صحيحا في مبدئيات «حروب الشعب» ان قوة النظام لا تمنع قيام الكفاح المسلح ، بل هو بالعكس تماما يقوم لمواجهة الانظمة القوية ، فما لا يصح هو ان كفاحا مسلحا مقصورا على قبضة من المثقفين وعاجزا عن استنهاض الشعب قادر على زعزعة نظام قوي يلعب أدوارا اقليمية (فكوبا لن تتكرر) .

هذا ما يفسر الضربات القوية التي تلقاها الكفاح المسلح في صيف ١٩٧١ وتركت آثارها العميقة على جسده .

الفصل السابع

حركة رجال الدين الثوريين (*)

حركة رجال الدين او «الروحانيون الاحرار» حركة تنتمي لتراث وطني طويل من العداء للامبريالية ، تلمع فيه اسماء عديدة الى جانب اسم الخميني منها ميرزا الشيرازي قائد انتفاضة التبغ ومحمد الخياباني قائد احدى الانتفاضات في تبريز ، والامام كاليا بكاتي والامام السجين محمود الطالقاني وغيرهم .

وتعتبر انتفاضة التبغ اكبر اضاءة ثورية معادية للغرب في تاريخ الشيعية الايرانية ، ففي ١٨٩١ منح ناصر الدين شاه

---

* نشرت في «السفير» ٢٥-٩-١٩٧٨ .

امتياز تبغ لشركة انكليزية ، فأصدر المجتهد الاكبر ميرزا الشيرازي امرا يمنع على أتباعه التدخين وأعلن «اضراب مدخنين» طالما ان التبغ صادر عن شركة استعمارية ، فوجدت الدعوة اوسع صدى وقوطع التدخين مما أجبر السلطة على استرداد حق الامتياز .

هذه المبادرة المبكرة كانت «زولو» الايرانية في الرد على الاخضاع الامبريالي الكامل للبلد ، وكثيرا ما استلهمت بعد ذلك في سياق النضالات الوطنية لرجال الدين ، والتي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية ، تأخذ أشكالا سياسية اكثر بلورة منها « فدائيين اسلام» التي أسست عام ١٩٤٦ وتأثرت بـ «الحشاشين»، وقد اغتالت رئيس الحكومة رازمارا عام١٩٥١ لشديد عدائه للديمقراطية وتأميم النفط ، وفي ١٩٦٥ اغتالت رئيس الحكومة علي منصور فتعرضت لتصفية جسدية واسعة.

لم يطرح «ديسمبريو» ايران المؤمنون على انفسهم مهاما نظرية او بعيدة المدى ، فتعهير البلد يترجم نفسه برموز بشرية يجب التخلص منها ، والحمية الايمانية هي القول الفصل الذي يتجاوز الاشخاص، جميع الاشخاص ، كما تم تجاوز آية الله كاشاني احد أبرز مؤسسي الحركة حين انحاز الى جانب الشاه بعد ان كان حليفا اساسيا لمصدق .

في ١٩٦١ أفرز الوسط الديني شكلا شديد الاقتراب من «الحزب» او «الحركة» التي كانت «تعمل سرا في الجامعات والمصانع ، ونشاطها الرئيسي وسط الناس العاديين . هناك ما يقرب من اربعة آلاف رجل دين مجندين في خدمة الشعب ومستقبل ايران» .

لكن المشكلة لم تنته مع تأسيس «حركة تحرير ايران» اذ كما يقول احد قادتها ومنظريها «ولدت التناقضات بين امكانات الحركة الواسعة التي يصعب ضربها وقواعد الحزب التي لا تملك

هذه الامكانات» كما ان «الفكرة القومية لم تطابق الفكرة الدينية تماما» .

واعتقلت قيادة الحركة التي عملت بعد ذلك في نطاق «الجبهة الوطنية» اليسارية، فيما ساهم بعض قيادييها السابقين في تأسيس «منظمة مجاهدي الشعب» .

وفي ١٩٦٣ برزت قيادة آية الله الخميني :

فآنذاك كان النظام مستغرقا في قمع الحركة الطلابية ، وجاء الهجوم على الكلية الدينية في قم بين ٢٢ و٢٤ ايار بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير .

طبعا ، كانت وراء ذلك عوامل عديدة يموج بها المجتمع الإيراني ، في مقدمتها «الثورة البيضاء» التي اعطت عملية التغريب دفعة نوعية الى الامام ، وأعطت الالتحاق بالغرب مزيدا من الزخم ايضا .

ويكفي ان نذكر ان مجلس النواب الايراني صدق آنذاك على اعفاء المواطنين الاميركان المتواجدين في ايران من الخضوع للدستور الايراني ، فاذا أقدم اميركي على قتل ايراني سلم الى بلاده التي لا يشاركها احد في الحكم عليه ، دون ان يترافق هذا مع معاملة اميركية مماثلة للرعايا الايرانيين في الولايات المتحدة.

وكان طبيعيا ان تثير افكار «الثورة البيضاء» شكوك الجميع، فلا يرون فيها سوى مقدمة جديدة تؤدي لمزيد من التبعية الحضارية ، وتستفز كل الكوامن العميقة في الحضارة الاسلامية الشيعية .

فكيف يطلب الى المسلم ان يهضم مسألة نزع الحجاب على انها المسألة المركزية في تطور ايران ، في حين ان الشعب يطالب باديء ذي بدء برفع كابوس القمع والارهاب عن صدره ؟

وكيف يطلب اليه ان يهضم «تحرير المرأة» على يد الشاه الذي يمنع التحرير عن الشعب بأكمله ؟

وان تكون قيادة انتفاضة حزيران ١٩٦٣ ، قيادة دينية ، امر

له معنى آخر .

فبين ١٩٥٣ ، تاريخ الاطاحة بمصدق ، و١٩٦٣ ، اقلاع «الثورة البيضاء»، سجل من القمع طال جميع القوى السياسية والاجتماعية من حزب «توده» فـ «الجبهة الوطنية» انتهاء بالحركة الطلابية .

وهو قمع قاد الى تدمير واجتثاث واسعين صاحبهما توسع هائل للنفوذ الاميركي في البلد على الاصعدة الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية .

وبدا العجز الشعبي منقطعا الى ايمانه ، ناظرا اليه على انه الخلاص الاخير . فكل فشل سياسي عن «التحرير» كان يوحي لقطاعات من السكان ان التحرير هو في يد الله الذي عليه الاتكال والامر امره ، انها صوفية يتجاور عندها الموت والحياة .

عند هذه النقطة اعطى الناس امرهم لسياسة من نوع آخر، سياسة كما الايمان تأخذ كل شيء ، وتمنح الاسلام السياسي زلزلة مهيبة فيها يتكيء الاعتراض على الحاضر فوق حالة صوفية عميقة وثقة هائلة بالكم الواسع .

وبعد نفي الخميني الى تركيا فالعراق ، ساهمت مجموعات دينية في حركات الكفاح المسلح . فبالاضافة لتأسيس «مجاهدي الشعب» أنشئت تنظيمات دينية صغيرة كـ «حزب الله» و«مجموعة ابي ذر» وغيرهما .

وفي المحيط الجذري لقاعدة رجال الدين كوّنت مجموعة «شريعتي» التي تمثل احد اكثر وجوه الاسلام السياسي الايراني اضاءة : موقف جذري من السلطة والملكية والغرب ، واستعداد في الآن نفسه للانفتاح والحوار مع الفكر الغربي التقدمي والعمل مع القائلين به ، دون ان يقود هذا ، بطبيعة الحال ، الى تغييب الحالة الدينية التي هي «الجوهر» .

هنا ، يجدر ان نتوقف قليلا امام خصوصية رجال الدين

الشيعة ، وهي خصوصية تساعد على اداء الدور الاجتماعي السياسي النامي .

فالبحث عن الامام الثاني عشر الذي هو «في الغيبة» يجعل الوعي الايديولوجي غير عابىء وغير منبهر بأية سلطة ادنى ، بل ويضع ذلك الوعي في موقع يغلب عليه التعارض مع تلك السلطة ، وهي سمة شيعية لازمة ، في مواجهة الطغيان .

يترتب على ذلك ان صورة رجل الدين تنطوي على قدر من السلطة الاخرى ، مستمد من صلة هذا الرجل بالنظام الامثل الغائب . فاذا كان الامام السني هو الخطيب الذي «يؤم» الناس في مساجدهم ، فالامام الشيعي حاكم لا يرقى اليه الحكام .

ان فكرة «الغيبة ــ العودة» عند الشيعة وبعض الفرق الاسلامية التي نشأت في مناخ المعارضة ، هي غيرها في اليهودية الحالية معبرا عنها ب «ارض الميعاد» .

فالاخيرة تحققت في الوضع الاقتصادي الاجتماعي لليهود قبل ان «تتحقق» في انشاء دولة اسرائيل ، وتم استحضار ارض الميعاد عندما تصالح اليهود معاوروبا تحت ظلال الرأسمالية حيث صار الجميع يهودا كما قال كارل ماركس .

اما الاولى فلم تتحقق ولا تبدو في طور التحقق . فيكفي ان يكون موقع الشيعية الاول في العالم ــ ايران ــ على هذا القدر من التبعية للغرب والابتعاد عن الديمقراطية والنفور الرسمي من «جوهر الدين» ، حتى تبرز المناحة العاشورائية نفسها ، وتعيد المأساة الكربلائية انتاج ذاتها ، ويتطابق البكاء على الحاضر مع البكاء على الامام علي وولديه الحسنين .

ولا تقتصر المسألة على الايديولوجيا ، ففي حين يعتمد اغلب رجال الدين السنّة على الاوقاف والمرتبات التي تخصص لهم بحكم وظيفتهم الدينية ، مما يقلص مساحة تمايزهم عن السلطة ترى رجال الدين الشيعة متحررين في قرارهم المالي وبالتالي السياسي ، لان «العالم الديني الشيعي يعتبر مال الحكومة مالا

يشك في انه مال حلال ، فكان يرفض كل عون مالي حكومي» .

وكون الفقه الشيعي لم يغلق باب الاجتهاد ، فهذا ابقى ، بشكل عام ، تفتحا علميا وعقليا عند رجل الدين الشيعي يفوق نظيره عند السني . وتقدم البيئة الشيعية نمطا من نظام الحلقات التي تشهد شغفا جماعيا في طلب العلم الديني والتفحص النقدي فيه ، و«الاجتهاد ، في عرفهم ، بلوغ مرتبة عالية في العلم الديني بحيث يستطيع المجتهد ان يفسر التعليم الديني ، ويستنتج المعاني التي قد تخفى على الناس ، ويستنبط الاحكام من القرآن والحديث والسنّة ، ويكون تفسيره واستنتاجه ملائمين لتغيرات الظروف والازمنة» ، والمفردات العقلانية في هذه الفقرة تغني عن اي اسهاب: يفسر، يستنتج، يستنبط، الخ.

هذا التفتح العلمي والعقلي يحفز استمراره ويضمنه عبر التمايز عن السلطة الحكومية ، ف «التلاميذ في النجف يتعلمون للعلم ذاته (...) والحوار الحر بينهم يجري في جو من الحرية التامة» .

ويلاحظ احد الباحثين في أمور الشيعة على ضوء دراسته للنجف بالعراق ، كيف يأخذ التدريس الديني شكلا ديمقراطيا متطورا ، حيث للطالب «ان يختار الموضوعات التي يود ان يدرسها ، والكتب التي يعتمدها ، والاساتذة الذين يرغب في الاستماع اليهم ، وله ان يختار زملاءه من الطلاب . وليس في هذه المدارس امتحانات مقررة تزعجه ، ولذا فانه اذا قرأ كتابا او دخل في نقاش حول محاضرة حضرها ، لا نجده متسرعا يريد بلوغ الحقائق والاستنتاجات في أقصر وقت ، ولا هو مجبر على الحفظ غيبا ليعيد في الامتحان ما قيل له وقرأه» .

هذا وذاك من الامور لا يزودان الطالب الديني بالتفتح العقلي والوجهة النقدية الديمقراطية فحسب ، بل يؤهلانه ايضا لان يكون معلما ، «فالطلاب في اثناء تحصيلهم يقومون بأعمال

التدريس ، وليس هناك وسيلة افضل من التعليم ، سبيلا لفهم ما يكون المرء قد تعلمه في المدرسة» .

وفي عملية التدريس التي يقوم بها الطالب ، والتي تذكر ببعض ومضات «الثورة الثقافية» في الصين ، يتحقق امران على غاية من الاهمية ، اولهما اخضاع التدريس الديني اخضاعا دائما للتشذيب الذي تحدثه الممارسة توافقا مع مقتضى الحال «وتغيرات الظروف والازمنة» .

وثانيهما ، وهو الاهم في ما يتصل بالدور السياسي لرجال الدين ، خلق كوادر قيادية في المجتمع على قاعدة العلم الديني ، وهي قاعدة قادرة في المجتمعات الاسلامية على فرز الكوادر والقيادات .

لكن هذا لا يجوز ان يطغى على باقي تفاصيل الصورة . فالمؤسسة الدينية في ايران ليست كلها خيرا وليس كل تاريخها ناصع البياض ، شأنها في ذلك شأن العديد من المؤسسات والقوى التي تبحث عن الطريق عبر تقلبات لا تحصى ، وتكون عرضة لتلقي الآثار الاجتماعية والايديولوجية المتباينة ، وأحيانا المتضادة .

فاذا كان من المركزي ادراك دور الدين وادماجه بشكل ما في اية نظرية ثورية يمكن ان تنشأ عن المجتمعات الإسلامية ، واذا كان قطاع واسع من رجال الدين قد حملوا موقف شعوبهم وطبقاتهم التي دمرها دخول الغرب الى الشرق ، فهذان الامران لا يفترضان نقاء مزعوما يهيمن على المؤسسة الدينية ، كما انهما لا يفترضان بالتأكيد وجود اجوبة جاهزة عن مشاكل الحاضر لدى تلك المؤسسة .

فالطبطبائي كان يعكس بعض الآراء الدينية حين شارك رضا شاه في انقلاب ١٩٢١ البريطاني ، وكما ان كاشاني وقف الى جانب مصدق في البداية ، فقد وقف الى جانب الشاه في النهاية ، وشارك في ترتيب الهجوم على بيت رئيس الحكومة

الوطني .

وفي تاريخ المؤسسة الدينية ايضا آية الله بوروجيردي الذي استعمله الشاه عام ١٩٥٣ ثم تخلى عنه عام ١٩٦٣ ، وقد عمل الشاه وقبله والده رضا على الاستعانة ببعض كبار رجال الدين آملين تحويل الجامع الايراني الىوظيفة سياسية مشابهة لوظيفة انكنيسة الاسبانية في الحقبة الاولى من عهد فرانكو .

وفي بدايات «الاصلاح الزراعي» هادن الشاه المؤسسة الدينية عاملا على تطويقها في باقي قطاعات المجتمع ، بدلالة ان حصتها من ارض ايران والبالغة ١٥ بالمئة لم تمس .

والاسوأ ان العلاقات التي كانت سائدة في تلك الاراضي لم تكن تختلف عن العلاقات الاقطاعية في عموم ايران .

وهناك الان وضمن الحركة الدينية نفسها تيار هو اقرب ما يكون الى «الاخوان المسلمين» بنسختهم الشيعية ، وربما كان هذا التيار في الظرف الراهن أقل خطورة من تيار آخر يرتبط بكبار التجار وتدور التكهنات حول امكانية اعتماده من الولايات المتحدة كبديل او جزء من بديل مقبول يحل محل الشاه ، وقد انعشت بعض السلوكية الفئوية لـ «اليساريين» وخصوصا اعدام «ماركسيي» منظمة مجاهدي الشعب لمسلمي المنظمة طروحات العداء للشيوعية في وسط رجال الدين .

هل يطلق الاسلام طاقة الثورة حتى النهاية ؟

يبدو ان ثمة سوء فهم ناتج عن الدمج بين الاسلام والمؤسسة الدينية التي «تملك» .

ورغم ان الامرين مختلفان ، فتملك المؤسسة لا يلغي ثوريتها بالمطلق ، اذ في الصراع مع الاستعمار يقوم هذا الاخير بالغاء ملكيتها كما ألغت بورجوازية اوروبا ملكية البورجوازية الصغيرة .

لقد اتسعت التجربة التاريخية في «العالم الثالث» لتشمل «الامير» سيهانوك في كمبوديا ورجال الدين البوذيين في فيتنام

وكنيسة اميركا اللاتينية الكاثوليكية التي لم يكن كاميليو توريز رمزها الوحيد ، وتحولت كنائس الباسك والكاتالان الى منابر نضالية ضد سلطة فرانكو .

ومع هذا فالمقصود هو الثقل النوعي والشعبي للاسلام الذي اثبت انه يفوق كل ثقل سياسي آخر . وفي هذه الحدود ، وفي ظل غياب وجود ثوري يستوعب الخصوصية الدينية ، يبرز دور المؤسسة الدينية بوصفها الوسيط الوحيد مع هذا الثقل النوعي للاسلام .

وفي ما يتصل بالمؤسسة الدينية نفسها ، يلاحظ ان مسك العصا من الوسط يختل باتجاه اليسار . فهي تضم سبعين الف رجل دين وتلميذ ديني ، يتلقون تأثيرات كافة القوى الاجتماعية، لكن الاتجاه نحو تهميش الغالبية الساحقة للشعب الايراني يجعل صدى هؤلاء المهمشين على المؤسسة الدينية هو الاقوى والاكثر نفوذا .

صحيح ان قطاعا من التجار يوصل صوته بشكل مسموع الى حركة رجال الدين ، يزيد في ذلك تدفق «الاخماس» والهبات والمساعدات ، لكن الصوت الاعلى يصدر عن اقتصاد البازار المضروب والطبقات التي اجتثت واقتلعت والبورجوازية الصغرى التي تزداد بؤسا وتتسع كما مضافا اليها بورجوازية صغرى حديثة انتجها توسع الادارة وبيروقراطية نظام التوزيع بل البيروقراطية العامة للنظام ، وقادها قصر يد الدولة معها الى اكتساب وعي رافض لا يجد قناة له في ظل التعطيل والقمع .

وهذا معنى ان يدعو شريعتمداري الى حشد شعبي ، فتسير المظاهرة وهي ترفع صور الخميني .

وعلى الجانب الثاني يقود الدور التقدمي لرجال الدين الى إحياء متجدد للحالة الدينية في وسط المثقفين الوطنيين، بحيث يصبح الاحتجاج الديني انعكاسا عصبيا عند الشعب على عمومه.

لقد ألقي رجال الدين في الحياة السياسية مبكرا ، وبدأوا

منذ مطلع هذا العام يقودون تحركات شعبية كبرت مثل كرة ثلج في تيارات من القوم لا تنقطع .

لكن هذا كله يجب ألا يقلل من اهمية الثغرات ، بل يجب بالعكس تماما ان يفتح النقاش الاوسع حول تلك الثغرات .

فالخميني الذي حقق «ديمقراطية المرجعية» في الدين ، ومثّل في السياسة سيماء الفئة الدينية الاكثر تقدما ، قفز قفزة كبرى نحو الواقعية السياسية بادراك مسألة السلطة والقبض عليها ، وعبر عن ذلك اوضح تعبير الحاحه على ان الوعود الديمقراطية والتنازلات الشكلية من قبل السلطة هي بنود انشائية صرفة .

على ان الحركة حافظت مدة اشهر طويلة على طابع المطالب السياسية ، تستيقظ في ذكرى اربعين شهيد وتخبو في الواحد والاربعين ، ترتفع حدتها مع خطبة الجمعة ويتم تسريحها في باقي ايام الاسبوع .

ان وجود حالة بروميثيوسية في وسط الجماهير ، مضافا اليها ان الصراع الوطني يجري بقليل من التراتب الاجتماعي ، عملا على مفاقمة الموسمية الثورية . فرجال الدين لم يوجدوا حتى اللحظة تنظيما سياسيا يكون بمثابة البوصلة النضالية والشعبية ، ولا زالوا يعتقدون ، على ما يبدو ، ان التضامن الموروث عن نظام الحرف خير من التنظيم .

وتزداد اهمية التنظيم (وهي ليست اهمية سحرية بأية حال) على ضوء الغياب الكامل للريف الايراني في الانتفاضات الاخيرة الذي يعزوه البعض الى انحصار الكتب والمدارس والمكتبات الدينية في المدن ، ويعزوه البعض الآخر الى فقدان السلاح بين أيدي الفلاحين .

وبرغم وجاهة هذين العاملين ، فانهما قاصران وحدهما عن تفسير ذلك الاستنكاف الريفي عن العمل الثوري ، بالرغم من

تاريخ التقاليد القبلية الثورية (وهذا ما سنعود اليه) .

ولئن كانت حركة رجال الدين تنطوي على محاولة توحيدية ديمقراطية على قاعدة الشراكة في الايمان بدلا من التوحيد القسري على قاعدة عنصرية ، فهذا لا يكفي ، كما أشير من قبل، لحل مشاكل الوضع الايراني حلا عمليا ، واشارة منظر «حركة تحرير ايران» حين قال «ان الفكرة القومية لم تطابق الفكرة الدينية تماما» اشارة تغني عن الكثير من الشروح .

فالمسألة الاسلامية عند رجال الدين لم تخرج بعد من موقعها في الممارسة بمواجهة نظام طاغ الى موقعها في التنظير الذي يتلو الممارسة في بعض الاحيان (كما يسبقها في احيان اخرى) .

هنا تتشابك غابة من القضايا المتصلة بتوليد نظرية ثورية للمجتمعات الاسلامية (والعربية) وفي هذه الغابة يشكل درس واستيعاب تجربة رجال الدين الايرانيين موقع القلب من الجسد، كون هذه التجربة هي الاكثر انخراطا بجوهر الصراع في المنطقة.

لكن أن تلقى على الدين في شكله الخام تبعة «استعادة» الانسجام في كل مكان وكل مرفق ، يجعل «الاسلام» عند المسلمين أقنوما مثل أقنوم «الكفاح المسلح» وأقنوم «الطبقة العاملة» عند صاحبيه .

ان رجال الدين المسلمين ، وحركة الخميني بلغة اكثر تحديدا ، يسلمون بشيء من الملكية الجماعية غامض التصور ، ويقولون بالحوار مع جميع اعداء الشاه على تباين المواقع والافكار المحمولة ، لكن هذا ايضا يترك الامور في غاية العمومية .

واذا اقتربنا نحو المزيد من التحديد :

لقد اثبتت الانتفاضة التي بدأت مع مطالع هذا العام ان اسقاط الشاه ليس امرا مستحيلا ، لكنها اثبتت ايضا ان حركة رجال الدين التي تقود الجماهير لن يكون من السهل عليها ان تحتفظ بالسلطة من ضمن تصوراتها العامة عن التنظيم والجبهة والجماهير .. بل من ضمن «تنظيرها» الاولي والعفوي جدا عن

الوضع الايراني .

فايران ليست بلدا تتخلى عنه الامبريالية بسهولة ، نظرا لنفطها وثرواتها وموقعها الجغرافي وحجمها ، وهذا ما أكدته تجربة مصدق التي لم يفعل رجال الدين حتى الان ما يوحي انهم استوعبوا كل دروسها وعبرها .

ان الدين والقومية يشكلان الاغراء الاعظم للنظرية الثورية في «العالم الثالث» عموما والعالم الاسلامي بالتخصيص ، والفارق بين حركة رجال الدين وغيرها من القوى التقدمية الايرانية ، ان الاولى ابنة هذا الاشكال الرئيسي موضوعيا وبلا تنظير، بل وانها موجودة في عصبه بحكم آلية التبعية الاقتصادية والثقافية ، فيما القوى الاخرى تعيش على هامشه ولا تمت اليه بصلة نسب قوية فتتعامل معه من موقع «نظري» مبتعد .

هذه الحال الاخيرة هي ما كانته الشيوعية الصينية قبل مذبحة شانغهاي في أواخر العشرينيات ، حيث كان تعففها العمالي يسد عليها الطريق الى التناقضات الحقيقية للمجتمع الصيني ، وانتهى امرها بمذبحة سببت اعادة تأسيس الشيوعية الصينية على قاعدة صينية .

وبين حاجة حركة رجال الدين الى التنظير (والتنظيم) ، وحاجة الآخرين الى الانتماء الكامل ، تظهر معضلة الوضع الثوري الايراني ، اي مشكلة الاستجابة المركبة لذلك الاغراء الاعظم : الدين والقومية .

فهل يندفع وضع النظام الشاهنشاهي الى السقوط بحيث تقع السلطة على الارض ولا يكون احد قادرا على لمها ؟

الفصل الثامن

الحلول والبدائل المطروحة (*)

هل تنتج ايران «ثورة في الثورة» ؟

هذه المزية لم تكن في حقيقة امرها مزية كوبية فحسب ، رغم ان كتاب ريجيس دوبريه الشهير جعلها لفظة تقترن بالتجربة الكوبية .

فكل ثورات القرن العشرين كانت ثورات في الثورة ، هكذا كانت ثورة البلاشفة الروس التي اطلعت نظريات «الحــــزب» و«تحالف العمال والفلاحين» و«الامبريالية» وأكدت ذاتها علــى

---

* نشرت في «السفير» في ٢٨-٩-١٩٧٨ .

ضوء هذه النظريات : فروسيا هي «أضعف حلقات السلسلة» والبلد الانضج للثورة بعكس ما قالته ماركسية اوروبا الغربية في القرن الماضي .

وهذا ما كانته الثورة الصينية والثورة الفيتنامية وغيرهما.

وايران التي تعيش اكثر التناقضات حدة مع الامبريالية ، لا يمكن ان تأتي ثورتها الا ثورة في الثورة .

لكن ثمة فارقا ، يبدو مهملا ، بين اسقاط نظام وبين انجاح ثورة وإهمال هذا الفارق هو ما جعل الحديث عن دور الجيش اسير المزج بين مستويين متباينين .

فلجوء الشاه الى الجيش واعلان الاحكام العرفية ، يقابله توجه قادة المعارضة للجيش ومناشدته الوقوف الى جانب الشعب ، قاد جميع المعلقين الى اعتبار الجيش بيضة القبان في تقرير الوجهة السياسية التي ستأخذها ايران .

والحقيقة ان الشاه قد أعد الجيش لان يكون ما هو عليه ، فقد خاصم البورجوازية الوطنية ورجال الدين والحركة الطلابية والطبقة العاملة وسكان الريف ، فيما بدأت تنفك البورجوازية الوسيطة عنه .

كل هذا وضع عنقه في يد الجيش ، فاذا أحكمت هذه اليد قبضتها بات الشاه في عداد الموتى ، واذا ارختها استعاد الشاه حياته وقدرته على الحركة .

هذه هي نصف الحقيقة ، اما النصف الآخر ففحواه ان سقوط النظام اذا ما انحاز الجيش للشعار ، لا يعني قيام ثورة ونجاحها ، خصوصا في ظل :

١ ــ ضعف تنظيمي تتميز به حركة رجال الدين .

٢ ــ ضعف شعبي قاتل تتميز به الحركات السياسية الاخرى .

٣ ـ ان ايران بلد تخوض الامبريالية معركته حتى الرمق الاخير .

واذا كانت الحلقات السابقة قد عرضت لبعض جوانب القصور عند كل طرف على حدة ، فرؤية القصور العام والمركب في الحركة الوطنية الايرانية يتبدى بأوضح أشكاله في الوضع اللاثوري الذي تميز به الريف (نتيجة الضعف التنظيمي لحركة رجال الدين والضعف السياسي للحركات التقدمية الاخرى) .

فعلى امتداد الاشهر التسعة الماضية التي امتلأت بالنشاط الجماهيري ، لم نسمع بمساهمة قام بها الريف تستحق الذكر ، علما بأن اختيار الفلاحين في «العالم الثالث» يقرر مستقبل الثورات .

لقد نقلت سلطة البيروقراطية الى الريف مع «الاصلاح الزراعي» عبر انشاء مجالس في القرى والمحافظات والمقاطعات وغيرها ، فحلت سلطة الجهاز الاداري محل سلطة الاقطاع ، وأدخل الريف في دائرة التوحيد القسري للسوق على حساب تفسخ التنظيمات القبلية .

واستطاعت الرأسمالية الزراعية ان تجني العديد من المنافع محمية ببنادق وأسواط الجنود الذين ذهبوا في «مهمة تاريخية» فاغتصبوا النساء وسيجوا علاقات النهب الاكثر تطورا .

في مقابل ذلك لم يعرف الريف الذي بقي عطالة كمية ، اية محاولة ثورية ، فبدت الانتفاضات القبلية خاتمة مرحلة سابقة ، وبدا الفلاحون الصغار عاجزين عن تنظيم انفسهم ، يردون على القمع والسلب بمبادرات فردية انتحارية .

وعمل الغياب التنظيمي لرجال الدين على ابقاء الريفيين بلا اي زاد سياسي سوى الحسرة التي خلفها الوضع الناجم عن «الاصلاح الزراعي» .

اما الحركات التقدمية وخصوصا «الجبهة الوطنية» وتوده فبقيا ايضا خارج الريف ، اذ اكتفت الاولى ببورجوازية المدن

الصغيرة ، وقادت سطوة النموذج البروليتاري عند توده الى الانكفاء عن الريف .

وجاءت الضربة الاولى التي تعرض لها الكفاح المسلح بعد عملية سياهكل لتنقل نشاطه بالكامل الى المدن .

لقد كانت احدى «نتائج وتوقعات» تروتسكي ان الفلاحين امام خيارين لا ثالث لهما : اما ان تقودهم البورجوازية وإما ان تقودهم البروليتاريا . ففي الثورة الفرنسية تولت البورجوازية قيادتهم وفي الثورة الروسية تولت البروليتاريا المهمة .

لكن النموذج التروتسكي لم ينطبق على ايران، فلا بورجوازية مصدق قادت الفلاحين ولا بروليتاريا توده تولت المهمة ، والطرفان في النهاية كانت تحكمهما فيهذا الموقف غربية التعاطي مع الوضع الايراني ، وهي غربية تقود استتباعا الى اختزال الريف .

فمصدق الذي اراد للصراع سلفا ان يكون محدودا ، غض النظر عن القوى التي لا تجد تعريفها وموقعها الا في الصراعات المفتوحة .

اما الموقف من الريف عند توده ، فكان اوضح النماذج على التعاطي الثوري الغربي مع العالم الثالث ، وهو تعاط لم يقتصر على توده في كافة الاحوال .

يقول اميلكار كابرال في مؤتمر ضم شيوعيين اوروبيين : «اذا كان التاريخ تاريخ الطبقات فان غينيا بيساو تعيش خارج التاريخ» .

و«الطبقة» التي ينبذها كابرال ليست بالضرورة كل «موقع من الانتاج» ، بل هي رمز لاتجاه يجعل الثورة مستوردة الى حد بعيد من القطاع الرأسمالوي الذي ينجب «اكثر طبقات المجتمع تقدما وعقلانية ، اي الطبقة العاملة» .

هذا الرهان التاريخي على القطاع الراسمالوي ومحموله

الاقتصادي : الطبقة العاملة ، على حساب القوى والمواقع الاجتماعية التي يجتثها او يضربها القطاع المستورد ، هو الذي جعل ابناء الاقليات المرتبطين اقتصاديا وثقافيا بالقطاع الرأسمالوي ، يلعبون أدوارا اساسية في قيادة الحركات الشيوعية ، بالتضاد مع الخزان البشري الاسلامي الذي ضربت قاعدته الاقتصادية ، وبالتضاد في الكثير من الاحيان مع الريف ذي الاحتياط الثوري .

وللشرق المسلم سجل من التجارب النافرة مع «اشتراكية» وافدة على التراث القومي والديني من خارجه ، كأن يأتي السان سيمونيون مبكرا بين عامي ١٨٣٣ و١٨٣٥ الى اسطمبول ومصر في «بعثات دعاية وعمل» ، ثم يتولى مثقفو الاقليات شأن سلامة موسى وفرح انطون وشبلي شميل مهمة تبشير المسلمين بالاشتراكية كجزء من تراث اوروبا الذي لا يبلغه الا المثقفون .

او كأن تلعب الاقليات اليهودية دورا اساسيا في نشأة الشيوعيتين المصرية والفلسطينية ، ودور حامل الوصايا الاممية الى الشيوعية السورية ـ اللبنانية ، و«تظهر في بداية القرن العشرين ، خاصة في حلقات هامشية لدى الاقليات ، حركة نقابية بروليتارية وفي آن معا تنظيمات اشتراكية ديمقراطية على اتصال بالاممية الثانية» .

ويظهر جنين الطبقة العاملة وسياستها في الامبراطورية العثمانية كامنا في ذوي الاصول المسيحية واليهودية ، وتصل الشيوعية الى ايران من باكو ، وتقوم الشيوعية اللبنانية في بكفيا ، وتطلب الاممية الشيوعية الى المهاجرين اليهود اليساريين «تعريب» الشيوعية الفلسطينية !

هذه الامور وجدت اشمئزازا من «الاستيراد» عبر عنه رجال لا يشك بوطنيتهم ، كما فعل جمال الدين الافغاني في سبعينيات القرن التاسع عشر ، وتبعه بعد قليل احمد لطفي السيد .

وفي ايران تحديدا ، حيث كانت نسبة عالية من قياديي

حزب توده تنتمي للاقليات «أثيرت شكـــوك المثقفين القوميين» يعززها أتباع الحزب للخط السوفياتي دون اية نقدية .

وعبّر الريف عن شعوره بالحذر ، كما دلت على ذلك مطاليب القواشقة الذين انتفضوا ضد السلطة عام ١٩٤٦ وطالبوا فـــي وقت واحد باجراءات وطنية معادية للاستعمار واخراج الوزراء الشيوعيين الثلاثة من حكومة قوام السلطنة ، وبعد ست سنوات أيد القواشقة دون تحفظ خطوة التأميم التي خطاها مصدق .

ان سطوة النموذج البروليتاري على العقل الثوري خلق انكفاء عن الريف يواجهه حذر عند الريف من ممثلي الثقافة الغربية ، وانكفاء منه عن «الالحاد» .

وبقي الريف بعيدا عن حلبة العمل السياسي لهذه الاسباب مجتمعة .

* * *

بين ايران واثيوبيا هيلا سيلاسي تشابه ملحوظ . فالبلدان لم يعرفا استعمارا مباشرا كاملا ، بل عرفا استعمارا موضعيـا واقتطاعات تطال بعض اراضيهما ثم ترد او لا ترد .

والبلدان لم يعرفا سيادة مطلقة ، بل كانت سيادتهما مراقبة دائما ، وهما بلـدان امبراطوريان مواليان للغرب ، يعجـــان بالقوميات والاقليات والاجناس .

يبقى شبه محتمل : في اثيوبيا أدت حركة رجال الدين الى إضعاف النظام ، واشتركت مع الحرب الجارية في اريتريـــا للاتيان بـ «الدرق» الى الحكم .

فهل تقود حركة رجال الدين الايرانيين الى نتيجة مماثلة : نجاح (سلبي) في اسقاط الشاه وعجز (ايجابي) عن امتـــلاك السلطة يقود بدوره الى قيام الجيش بالمهمة .

هذا امر جائز رغم ان احدا لا يستطيع توكيده ، وهو اذا حدث فولادته تنشأ من رحم الضعف البنيوي في حركة رجال الدين .

وافتراض امر كهذا يعني ان الجيش ، الذي دلله الشاه ومنى النفس بجعله بديلا عن اية عقلانية اجتماعية تحكم البلد ، قفز الى السلطة مزيلا ديكتاتورية الفرد .

اذن ، فالمطلب الخطابي عن ازاحة ديكتاتورية الشاه ليس مطلبا كافيا وحده ، برغم ان ظروفا عديدة بررت هذا التواضع السياسي وسمحت له بالسطوة .

والجيش هنا كالغيب المجهول .

● فاذا افترضنا النموذج الاثيوبي حيث قادت التصفيات المتتالية الى سيطرة مانفستو هيلي مريام القائل ب «الماركسية ــ اللينينية» ، فهذا لا يحل الاشكال الديمقراطي الذي طرح في ايران على انه النقطة التي تتكثف عندها التناقضات مع الرجعية والامبريالية ، والدليل على ذلك ان نظام مانفستو لم يخرج حتى الان بالصيغة الديمقراطية الموعودة عن طريق انشاء «التنظيم الثوري» .

● واذا افترضنا النموذج الناصري في مصر ، او التكرار العسكري لتجربة مصدق المدنية ، فالشك مبرر وعميق بوجود بورجوازية وطنية قوية تكون قادرة على اسناده ، بعد كل ما لحق بها من هزائم مهلكة اقتصادية وسياسية .

● واذا افترضنا النموذج البرتغالي كما انتجته «ثورة القرنفل» في نيسان ١٩٧٤ ، فالشك يتضاعف ، حيث ان تلك الثورة لم تفعل بعد استبعاد غونزاليز والشيوعيين ، سوى التصالح معاوروبا الشمالية تحت ضغط بنى وتأثيرات متجاورة، وهذا يطرح بالحاح اكبر دور البورجوازية الوطنية وقدرتها على إحداث تغريب يكون أعمق من تغريب الشاه السطحي .

● ويبقى نموذج الانقلاب الفاشي يقوم به الجيش فيأتي

بضباط يونانيين او بهتلر جديد عليه دمغة العالم المتخلف لانقاذ جمهورية فايمار الايرانية .

وهذا ما يمكن استبعاده بسبب ان انقلابا كهـذا لا بد ان يكون البديل الاميركي المطروح ، ومن المستغرب ان تلجأ الولايات المتحدة الى «انقاذ» ايران ، في عهد «الحقوق الانسانية» ، بمزيد من التورط في الديكتاتورية السافرة .

● من ضمن البديل الاميركي ، يمكن الحديث عن نمـوذج سعودي موسع ومعدل على ضوء الخصوصيـات الايرانية ، والنموذج السعودي المقصود هو الاطاحة بالملك سعود تحت وطأة حرب اليمن واستبداله بالملك فيصل .

وقد يأتي مثل هذا التغير عبر واسطة العسكر، وقد يأتي عبر واسطة اخرى ، ذلك ان قواه الاجتماعية والايديولوجية متوافرة:

هناك اولا الكومبرادور الذي قوي اقتصاديا دون ان يستطيع ترجمة هذه القوة على المستـوى السياسي بسبب العـازل الديكتاتوري الذي يمثله الشاه .

يضاف الى الكومبرادور تيار رجال الدين المحافظين الذين يقودهم آية الله شريعتمداري الذي برز بوهج واصطخاب مـع الانتفاضة .

ويبقى دور الجيش وموقفه امرا مبهما : هل يكون القاطرة التي توصل هذه القوى بحيث يمارس بعد وصولها دور الحاكـم غير المعلن وهو دور عرفته جيدا بلدان آسيوية كتركيا وتايلانده.

واذا وصلت هذه القوى دون ارادته ، فهل يعتبر نفسـه الخاسر الوحيد من رحيل شاهه وولي نعمته ، ام يستطيـع التوصل بسهولة الى تسوية معقولة مع البديل الجديد من موقع ان الستراتيجية الاميركية في المنطقة لا يمكن ان تسمح بايـران ضعيفة ، وبذلك يحل تغيير كيفما اتفق يعاد بعده تكوين آليـة الاضطهاد .

هذا الخيار الاخير ، في ما لو حصل ، يعني انتقال الجيش القوي الى لعب دور «طبيعي» في امبريالية فرعية وظيفتها الاساسية وظيفة خارجية ، وبذلك يكف عن دوره الداخلي كبديل لـ «المجتمع العقلاني» ويترجم الكومبرادور قوته الاقتصادية على المستويين السياسي والدستوري .

(وفي مجال البحث عن البدائل ، يصعب تجاهل الابراز الفجائي لولي العهد الشاب رضا محمد الذي ظهر في زي اصلاحي وديمقراطي ، كما ظهر ابوه محمد رضا في زي انكليزي حين اتخذ قرار ترحيل رضا شاه الموالي للالمان عام ١٩٤١) .

لكن ماذا تريد الولايات المتحدة الاميركية من نظام الشاه ؟

أ ـ من الصعب ان يقال قطعا بأن الولايات المتحدة تعادي استمراره في السلطة ، فالدولة التي تمده بالدعم والسلاح الكثيفين تتوخى منه جملة من الاهداف الستراتيجية : فهو على حدود الاتحاد السوفياتي ، وهو يلعب دورا عربيا وافريقيا هاما: يحتل الجزر الثلاث ، يهدد اليمن ، يلجم العرب ، يدعم عمان ، يشجع السادات ، يحذر الحبشة ، يدفع سياد بري لقطع علاقاته مع السوفيات ، يشترك بتمويل زائير موبوتو ، يقيم محورا نوويا مع اسرائيل وجنوب افريقيا ، ويقدم النفط عبر ميناء عسقلان لاسرائيل .

وهو يلعب دورا على جبهة اخرى، فيحاول في شباط ١٩٧٨ انشاء حلف عسكري اقتصادي مع بلدان شبه القارة الهندية التي اتجهت نحو التجانس اثر رحيل انديرا غاندي وذو الفقار علي بوتو .. وتزداد اهمية الدور الايراني على هذه الجبهة بعد انقلاب افغانستان الموالي للسوفيات والموصوف باليسارية .

اذن ليس مطلوبا من الشاه ان يضعف وليس مرادا له ذلك، لكن حين تكشف انتفاضة عمرها حتى الان تسعة اشهر ان الشاه على قدر كبير من الضعف ، فالولايات المتحدة لا بد ان تضع هذا الاعتبار في حسابها .

ب ـ ثمة مجال للاعتقاد بأن الضعف الذي تكشف عنه وضع الشاه، كان احد العوامل التي جعلت واشنطن تضغط على مناحم بيغن باتجاه الوصول الى تسوية في مؤتمر كامب ديفيد ، بحيث لا تتصدع الاعمدة الاميركية في الشرق الاوسط كلها دفعة واحدة .

على اية حال ، فلادارة كارتر آراء علنية وشهيرة حول الوضع الايراني .

فالاميركان لم يخفوا رغبتهم في إحداث تعديلات باتجاه «ليبرالي» و«تحديثي» في ايران ، ويربط تقرير صدر عن الكونغرس عام ١٩٧٥ بين ضرورة اجراء هذه التعديلات وضرورة تكثيف وزيادة التواجد الاميركي الاقتصادي والعسكري هناك .

يضاف الى ذلك ان الكونغرس كان قد صوّت لصالح فرض حظر على ارسال السلاح لايران ولم يرفع الحظر حتى قيام سايروس فانس بزيارة طهران في نهاية عام ١٩٧٧ لمناسبة انعقاد مؤتمر لوزراء خارجية حلف السنتو في طهران .

والحجة الاساسية في الاعتراض الاميركي ان السلاح شديد التعقيد الذي تحصل عليه ايران ، ليست هي بحاجة حقيقية له، فاذا اراد الاتحاد السوفياتي ان «ينتهك» سيادة البلد ، فلن تستطيع ايران مهما دججت بالسلاح ان ترده ، في حين ان تحولها الى ترسانة يهدد بتوريط الغرب بعملية غير محسوبة .

ويلاحظ هنا ان مجمل الاعتراضات الاميركية تلتقي في منتصف الطريق مع الآراء التي يعلنها الكومبرادور الايراني بشكل هامس، اذ الكومبرادور يعتقد ان طريقة الانفاق العشوائية على السلاح تهدر اموالا يمكن ان تستعمل في تليين البنى السياسية والاقتصادية بما يتيح المزيد من تسرب رؤوس الاموال، فيما تؤدي ازاحة العنجهية الشاهنشاهية الى تسليم امر الدفاع عن البلد للغرب بشكل كامل .

ولا يخفى ان الانتقادين الاميركي والكومبرادوري للتبذير والتهور والعنجهية والتوريط والذاتية الفارغة ، يجعلانهما نظريا يلتقيان على موقف موحد مفاده نزع الطغيان الفردي عن الراسمالية ، وايجاد شاهنشاهية ما بدون شاه .

في هذه الحدود ليس بوسع احد ان يستبعد وصول الولايات المتحدة الى قناعة عملية قريبة من قناعتها النظرية ، وذلك تحت ضغط الشعور بأن الشاه هو الرجل المريض في ايران والشرق الاوسط .

عند هذا يتطابق الموقف الاميركي مع القوى المحلية الطامحة، وتتخلص الولايات المتحدة من حليف هو شديد الازعاج رغم انه شديد الاهمية .

فالشاه الذي يتدخل بفظاظة في العملية الراسمالية داخل ايران ، ليس كما يقال عميلا للامبريالية ، بل هو حليف تابع يتدخل بنفس الفظاظة في تعيين وجهة السطوة الامبريالية على البلد : انه مع هذه السطوة قلبا وقالبا ، لكن له حسابات خاصة من ضمنها .

وهنا تمثل محنة النفط . فالشاه الذي اكتسب اهميته في عين الغرب بسبب موقعه النفطي و«حمايته» لطرف الامداد ، هو لنسبب نفسه اكبر من عميل مطواع ، وقد كادت المسألة ان تتكرر في السعودية بعد ارتفاع العائدات النفطية عام١٩٧٣ حيث بدأ الملك فيصل يدفع باتجاه ان يكون حليفا وشريكا ، مما جعل الشك يدور حول الاصبع الاميركي وراء اغتياله .

لقد ظهرت محنة النفط حتى الان على شكل مبسط : ان الولايات المتحدة والحلف الاطلسي عموما يريدان زعماء نفطيين اقوياء على شعوبهم وعلى جيرانهم وقادرين على ضمانة التدفق والامداد ، لكن هؤلاء الزعماء يطمحون الى دور اكبر حين يشتد ساعدهم .

اما الان ومع الحديث المتزايد حول الوجود العسكري

الاميركي في المنطقة ، يعززه نموذج أولي ضمنته اتفاقية فصل القوات الاولى في سيناء ، فالامر ربما اختلف .

بهذا المعنى يقدم «النموذج» اللبناني عينة اخرى من البدائل الممكنة :

فوجود القوات الاميركية المباشر يحل مشكلة الدفاع عن النفط ويلغي الحاجة لوجود انظمة قوية ، اي انه يبرر اعادة ايران الى ما كانت عليه ، من حيث القوة ، قبل وصول رضا شاه الى السلطة في مطالع العشرينيات.

وايران القوية قد تفلت من اليد ، وتتواصل على قاعدة اسلامية بعالم عربي ضخم تشكل قوميته جذوة ايديولوجية شديدة الاستعداد للاشتعال .

هنا يطرح النموذج اللبناني نفسه كنموذج ربما كان قابلا للاستعمال في شرق اوسط يموج بالاقليات القومية والطائفية والعرقية ، تاركا الامن النفطي والوجود الاسرائيلي في منأى استراتيجي عن اي خطر محتمل .

اما افتراض «ايران ثورية» (؟) فأمر خطير حقا ، رغم ان تجليه السياسي يبدو غير منظور في المدى القريب .

فثروة ايران وموقعها يجعلان طريقها الى الثورة طريقا وعرا بالضرورة ، فهي بلاد محرومة ، موضوعيا ، من الوسطية التقدمية .

والامر يتعدى ايران الى الامة العربية ، والتوازنات الدولية، والعلاقات النفطية .

فأية غلبة يحققها الاسلام الجذري على البترول تعني شرارة ستتلقفها الملايين التي تتمتع بمواصفات ، ليس من قبيل الشوفينية وصفها بالفرادة .

فالامة العربيةمضافا اليها ايران طاقة بشرية ـ اقتصادية ـ استراتيجية هائلة ، تتحكم بنسبة رفيعة من ثروة العالم

الحيوية ، وبعقدة المواصلات الدولية ، وبحافز ايديولوجي مشترك بين عشرات الملايين ممن يقطنون رقعة متصلة .

وليس من قبيل عقدة الاضطهاد بين سكان المستعمرات ، والتي تنم احيانا عن جنون عظمة ، ان يقال ان هذه المنطقة مهيأة لاضافات نظرية وعملية هامة .

ولهذا ليس من قبيل الصدف ان تكون جميع المفاصل والزوايا في هذه المنطقة معادية لشعوب المنطقة على العموم ، من ايران الشاهنشاهية «المتفوقة» على العرب في الشمال الشرقي، الى اسرائيل في الوسط ، ومن تركيا المعادية في الشمال الى القواعد في المحيط الهندي جنوبا والتواجد العسكري في المحيط الاطلسي غربا ، وبينهما بحر احمر تشارك اسرائيل في السيادة عليه .

لقد اثبتت الحرب العالمية الثانية بما سبقها وتلاها ان «التخلف» عن الرأسمالية الغربية ليس حالة من الانتظار السلبي لقدوم هذه الراسمالية . فهذا التخلف انتج الفاشية والحرب في ايطاليا والمانيا ، كما قادت العزلة في اليابان الى تحد كبير لم ينته الا بتصدير الرأسمالية الغربية ممثلة بدستور ماك أرثر ، في حين طرحت صين ماوتسي تونغ تحديا من نوع آخر في وجه الحضارة الغربية .

واذا كانت هذه التحديات تفرز تلاوين قومية متباينة بينها ما هو فاشي وما هو ماركسي معدل حسب طبيعة البلد ، فالمؤكد ان تحدي هذه المنطقة هو التحدي الاخطر والاقدر على التأثير في «العالم المتقدم» بدل التأثر الآحادي به كما تصور الفكر الغربي بشتى أشكاله .

ويصعب ان يندرج هذا التحدي تحت علم الفاشية رغم نزوع وطني وديني نافرين احيانا ، ذلك ان حرمان هذه المنطقة من الوسطية التحررية يعني انها مدرجة في معركة «نوعية» لا تنتهي مع الاستعمار ، بعكس المعارك القومية الوسطية التي خيضت

حتى الان ، وكان عداء اصحابها للامبريالية حسدا من الامبريالية المهيمنة وطموحا لاحتلال دورها ، وعلى هذه القاعدة من العداء «الكمي» تم التصالح مجددا مع الامبريالية الكبرى وبشروطها .

هذا ما كان مصير المانيا وايطاليا الفاشيتين اللتين انضوتا مجددا بشروط الولايات المتحدة ، وهذا ما كان مصير الديغولية التي واجهت هزيمتها الاولى بالانتقال من شعار «الاسرة الاوروبية» الى الاعتراف المكره بالدور الاطلسي لالمانيا الغربية ، ثم واجهت هزيمتها الثانية والاخيرة على يد وريثها ديستان ، وهذا ما كان مصير اليابان التي كانت الهيراكيري السياسية فأل جميع اباطرتها وسلالتها الحاكمة ، بل ربما مصير الصين التي تنتقل من زعيمة للعالم الثالث الى شريكة قوية للولايات المتحدة.

ان المصير الجديد لهذه المنطقة ، والذي قد يدشنه تغير ثوري في ايران ، هو ان تتناحر تناحرا عدائيا حادا مع الغرب حتى الهزيمة الكاملة للبترول كأبرز الرموز في علاقة قامت على النهب والتبعية والعنف .

لقد تحدث هنري كيسنجر في كتابه «عالم يستعاد» عن «بنية السلام» في العالم ، فقال بوجود قوتين كونيتين وثلاث قوى اقليمية ، اما القوتان الكونيتان فهما الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، وأما القوى الاقليمية فهي اليابان والصين وأوروبا الغربية ... وفي وسع هذه المنطقة وحدها ان تتحدى «بنية السلام» الاميركية وتطرح أحرج الاسئلة وأعمقها على سياسة السوفيات في مواجهة الاستعمار .

الفصل التاسع

بعض المعادلات في العلاقات العربية - الايرانية (*)

بين العرب وايران علاقات ، تضافر التاريخ والجغرافيا والسياسة والمصالح والدين لجعلها علاقات في غاية الحساسية. فبدءا بأبسط المستويات (وجود أقلية عربية في ايران ، واقلية ايرانية فيالاقطار العربية) (١) وانتهاء بأعقد المستويات وهو الذي

---

* «السفير» في ١٨-١١-١٩٧٨ .

١ - هذه المسألة لم تحظ بالاهتمام الذي تستحق ، فهناك الدور الهام الذي لعبه رجال الدين الايرانيون في العراق ابان ثورة العشرين، والدوي =

يتحدد بصراع حركتي التحرر العربية والايرانية ، ثمة على الدوام

= الديني المعادي للامبريالية الذي احدثته تلك الثورة في ايران نفسها» حيث - كما يروي عبد الله النفيسي - «أحدث خبر حصار النجف ردة فعل عنيفة (...) في ايران ، وانهالت الرسائل التي لا حصر لها على موظفي الحكومة البريطانية من الزعماء الدينيين لدى الشيعة ومن اعيانها يطالبون فيها باصدار العفو عن النجف ويعرضون وساطتهم . اما على الصعيد الرسمي فان الحكومة الايرانية نقلت الى السفير البريطاني في طهران مخاوف الحكومة من ان يثير حصار النجف الشعور الديني وهو امر لا تحمد عقباه» . والجدير بالذكر ان ثمة أعدادا كبيرة من العرب الشيعة الذين يقيمون في الاماكن المقدسة بايران قد تجنسوا بالجنسية الايرانية وخصوصا في فترة الحرب العالمية الاولى حيث كانت تلك الجنسية تجنبهم الانخراط في الخدمة العسكرية .

وفي هذه الصلات يلاحظ دور مركزي للانتماء الشيعي حيث «ان معظم علماء الشيعة في يومنا هذا من اصل فارسي وقد جهدت الدولة الصفوية ما وسعها الجهد لفرض العقيدة الشيعية على السكان ومن اجل ذلك استعانوا بعلماء شيعيين من جبل عامل في لبنان ومن البحرين فأصبحت اصفهان بعد ذلك مركزا للفكر الشيعي ولكن بسقوط الدولة الصفوية انتقل المركز الفكري للشيعة الى كربلاء والنجف» وفي الحالتين كان الانتماء الشيعي يوفر هذه اللحمة العميقة من التواصل العربي - الايراني .

ومن جهة اخرى يشير الباحثان البريطانيان كلارك وفيشر الى الوضع «التاريخي» للايرانيين في العراق فيقولا : «من بين الشيعة غير العرب في العراق يتمتع الايرانيون بأهمية تتجاوز عددهم الاجمالي اذ هم ينتمون الى دولة مجاورة قوية هي في الوقت نفسه الدولة الشيعية الوحيدة» . ويضيف الباحثان :«وفي كل سنة يحج آلاف الايرانيين الى مدن العراق المقدسة ، وكثيرون منهم استوطنوا هناك عبر العصور ، وفي ١٩٦٨ قدرت المصادر العراقية ان عدد الايرانيين الذين يحملون جوازات سفر ايرانية ويقيمون في العراق ، يبلغون ٢٢٨٦٠ نسمة اي ما يزيد عن نصف مجمل الاجانب في العراق في ذلك =

جسور من التقاطع والتواصل والتأثير .

وفي هذه العلاقات كان يلاحظ على الدوام تناقضان ، خصوصا بعد الاطاحة بمصدق :

الاول : ان الموقع السياسي لايران الرسمية هو دائما الموقع المضاد لحركة التحرر العربية وقيادتها الناصرية في الخمسينيات والستينيات .

الثاني : ان الجماهير الايرانية وقياداتها السياسية والدينية هي دائما في الموقع السياسي لحركة التحرر العربية .

ان الايديولوجيا العرقية للشاهنشاهية هي بالتعريف وبالتكوين التوسعي ايديولوجيا معاديةللعرب بقدر عدائها لشعوب الامبراطورية الفارسية ، وهي متطابقة مع اسرائيل التي تجمعها بها سمة التكوين العنصري وتحقيق الوظيفة الامبريالية الفرعية.

بهذا المعنى ففي حين كانت دورة الخضوع للامبريالية (الاقتصادية والثقافية) تستكمل توحيدها للعرب والايرانيين ، للسنَة والشيعة ، كان ينشأ ردا فعل متنافران :

● الرد الفارسي (الرسمي) الذي يؤكد الايغال في الحالة الاقلوية ويشدد على التمايز الذي يبعد عن العرب ويقرب من الجيب الاسرائيلي ، ويستجيب بهذا لشروط القيام بالدور

= العام . وفي عام ١٩٧٠ قدر كنسمان عددهم بمليون» ؟! و«الايرانيون في العراق يسكنون المدن ومن بين المسجلين رسميا في العام ١٩٦٨ يقطن ٩٥ بالمئة منهم في بغداد وضواحيها و٢٥ بالمئة في المدن المقدسة بمقاطعة كربلاء» . ويشير الباحثان الى ان عددهم في كربلاء حافظ حتى عام ١٩٢٠ على نسبة ارفع «ومذاك والعدد يتدهور (...) وفي ايار ١٩٦٩ وعلى اثر الخلاف حول شط العرب بين العراق وايران تعرض وضعهم للسوء وطرد ١٥٠٠ ايراني من العراق » .

الامبريالي الفرعي .

● والرد العربي الوطني ، والايراني الشعبي الذي يضمر حقيقة هامة في ما تشكله من رد على حقيقة التفتيت الامبريالي، وهي ان السنية العربية اصبحت في عصر الامبريالية شيعية بما هي الشيعية خسارة تاريخية للسلطة ، والشيعية الايرانية هي في العصر نفسه كالسنية العربية اي اكثرية تدافع عن الذاتية الوطنية التي ارتبطت بها ، وهي بالتالي مدعوة للانخراط في نضالات المنطقة التي تسير نحو الاستواء على قاعدة اكثر توحدا بفعل عمل الامبريالية .

من هنا وجّه الشيخ محمود شلتوت شيخ الازهر في اواخر الستينيات دعوته الى اعادة البحث في النظرة السنية الى المذهب الشيعي (وتردد آنذاك ان الرئيس عبد الناصر هو الذي اوحى بدعوة شلتوت) .

اذن وباختصار يمكن القول : ان اللقاء العربي ـ الايراني كان على الدوام تعبيرا عن التكافؤ مع التحدي الامبريالي بالتوحد في سبيل مواجهته ، وكان التمايز الفارسي عن العرب وهو الذي رعاه الشاه تتمة لسياسة اضطهاد الشعوب الايرانية والاقتراب من النموذج الاسرائيلي الغريب عن المنطقة .

ونستطيع هنا ان نقيس بدقة قواعد العلاقات الايرانية ـ العربية على ضوء تلك المعادلة : فإيران اعترفت باسرائيل «على اساس الاعتراف بالامر الواقع في آذار ١٩٥٠ وحضر دبلوماسي ايراني الى اسرائيل تحت اسم غريب : دعي اولا «مبعوثا فوق العادة الى فلسطين» وسمي بعد ذلك «ممثلا خاصا في دولة اسرائيل» ومع مصدق الذي تلازم صعوده مع صعود عبد الناصر في مصر «اغلقت ايران قنصليتها العامة في القدس وسحبت الاعتراف بالامر الواقع وأعلنت بأن جميع اليهود الموجودين في ايران سوف «يعادون جبرا» و... «استؤنفت العلاقات بسرعة

بعد اسقاط مصدق» (٢) وذلك كجزء من الاتجاه الـــذي «توج»

---

٢ ـ يتحدث الباحث ج. هـ. جانسن عن العلاقات الاسرائيلية الايرانيـة بقوله : «وأهم علاقات تقوم بين اسرائيل وبلد آسيوي هي تلك التي تربطها بايران والتي يكتنفها الغموض والسرية . فعندما كنت ابحث عن المعلومـــات المفصلة في اسرائيل حول العلاقات المتبادلة بين البلدين قال لي المسؤولـون الاسرائيليون في القدس انني اقيهم حرجا ... اذا حولت اهتمامي الى بلد آسيوي آخر» . ويصف بعض هذه العلاقات التالية على اسقاط مصدق حيث «عقدت سلسلة كاملة من الاتفاقات بين اسرائيل وايران . فايران تزود اسرائيل بكل ما تحتاجه من النفط وتقوم اسرائيل في مقابل ذلك بشق الطرق فـــي ايران وتشييد الابنية وزيادة محاصيل الشمندر والقطن واصلاح المناطق المصابة بالزلازل وبناء شبكات المجارير» .

هذا وتمر الطريق الجوية غير المباشرة والشديدة الالتفاف بين اسرائيل وجنوبي افريقيا عبر طهران ويستحيل اكتشاف حجم التجارة بين البلدين لان كل ذكر لايران قد ألغي من الاحصاءات الشاملة التـــي تصدر عن الحكومـــة الاسرائيلية منذ العام ١٩٦١ ، والواضح ان هذه الدرجة من التعامل لا يمكن تحقيقها بدون شكل من أشكال التمثيل الدبلوماسي . فقد اعلن الشاه فـــي العام ١٩٦٠ ان ايران لم تتوقف ابدا عن الاعتراف باسرائيل .

وهناك اشارات متفرقة الى البعثة الاسرائيلية في ايران حيث توجـــد جالية اسرائيلية كبيرة لها مدرسة خاصة لاطفالها .

وقال الشاه في عام ١٩٦١ ان العلاقات بين ايران واسرائيل «تشبه الحب الحقيقي بين شخصين خارج نطاق الزوجية . ان ايران تعزز علاقاتها باسرائيل ولكنها لاسباب سياسية لا تستطيع الاعتراف بها اعترافا قانونيا» .

ان مشاعر الشاه الحارة نحو اسرائيل مفهومة لان احد برامج العـــون التقني الاسرائيلي لايران هو تقديم التوجيه ذي المستوى العالـــي من الخبرة للبوليس السري الايراني الذي هو احد الدعائم الرئيسية لحكومة الشاه .

وستستمر العلاقات بين اسرائيل ونظام حكم الشاه جيدة لانها ترتكز على =

نفسه في دخول ايران بحلف بغداد المعادي لشعوب المنطقة في عام ١٩٥٥ (٢) .

= العداء المشترك للقومية العربية . ولكن هذه العلاقة لا توجد بالضرورة على الصعيد الشعبي فقد خرجت مظاهرات عنيفة في ايران ضد التعاون مع اسرائيل في حزيران ١٩٦٣» . ويلاحظ باحث عربي هو الدكتور عاطف سليمان ان «من اهم الفوائد التي حققتها اسرائيل من استيراد النفط الايراني تحقيق وفر مالي كبير نتيجة الفرق في الاسعار بين النفط الايراني والنفط الفنزويلي والفرق الكبير في أجور الشحن نظرا لان ايران اقرب بكثير الى اسرائيل من فنزويلا . وقد قدر هذا الوفر عام ١٩٦٧ وحده بحوالي ٢٢ مليون دولار .

وضمان استيراد النفط الايراني هو الذي مكن اسرائيل من بناء خط انابيب ايلات – حيفا وتشغيله مع ما يعود على الاقتصاد الاسرائيلي من آثار كبيرة ومع ما استتبعه هذا الخط من تعمير ميناء ايلات وتوسيعه والمساهمة في تعمير المناطق التي يمر بها الخط ، كما ان النفط الايراني الذي تثق اسرائيل في ضمان استمراره ووروده اليها هو الذي جعلها وحفزها على انشاء خط الانابيب الذي يصل بين ايلات وعسقلان والموجه للتصدير . وقد حققت اسرائيل من ورائه مكاسب سياسية واقتصادية كبيرة ، ولولا السماح للنفط الايراني بالورود الى اسرائيل لما امكن لها اطلاقا ان تفكر في انشاء مثل هذا الخط اذ بدون البترول الايراني – طالما ان قطرة واحدة من النفط العربي لن تصل الى ايلات – فان التفكير في انجاز مثل هذا المشروع كان امرا مستحيلا.

والنفط الايراني هو الذي مكن اسرائيل من بناء طاقة تكريرية كبيرة تتزايد باستمرار وتتجه في جزء منها نحو التصدير وهو الذي مكنها من انشاء اسطول كبير من ناقلات النفط يعمل جزء منها في نقل النفط الايراني الى ايلات وفي نقل كميات النفط والمنتجات المكررة المصدرة للخارج» . وثمة الى جانب ذلك علاقات عسكرية متطورة يشير اليها استعمال حرس الشاه لبنادق عوزي الاسرائيلية .

٣ – على ان هذا الموقع لم يمنع الشاه «الذكي» – بعد ان استتب الامر =

يجدر ان يشار هنا الى العوامل المتضاربة التي فعلت سلبا وايجابا في المواقف الايرانية من اسرائيل : فبالنسبة للشاه لم تمثل اسرائيل مجرد امبريالية فرعية او مجرد جسر للتطابق السياسي مع الغرب ، بل مثلت ايضا رافعة لتدعيم الاغتراب الفارسي عن المنطقة والاقتراب «الحضاري» من الغرب ، وكمنت نواة ذلك على الدوام في موقف السلطة الايرانية من الاقلية اليهودية التي تتمتع بموقع اقتصادي في راس الهرم الايراني ، والتي عن طريقها تم ويتم تسريب الرساميل الاسرائيلية الى الخليج العربي .

هذا الموقع الخاص والمميز للاقلية اليهودية اضاف عنصر نقمة آخر على الموقف الشعبي الايراني من اسرائيل والذي كان يؤججه باستمرار رفض وطني ـ ديني للامبريالية وتعبيراتها السياسية والعسكرية والايديولوجية والروحية .

ان ايران التي تشكل زاوية من زوايا الوطن العربي تشترك معه في رفد الغرب بحاجاته النفطية ، وبالتالي في ضرورة حماية «الامن النفطي»، وفيما يقود اي اتجاه نحو اندماج شعوب المنطقة الى التعارض مع تلك المهمة ، فالطابع العنصري للنظام الايراني يوفر مستلزماتها بشرط ان يتم ضبطه ضمن قنوات لا تخل بالمعادلات العامة للامبريالية .

= له ـ من التلويح بالصعود الوطني العربي لابتزاز الغرب به من ضمن مشروعه لتقوية شروط التحالف ، وهذا ما حصل اثر العدوان الثلاثي في ١٩٥٦ حيث تلا ذلك في العام ١٩٥٧ استقدام رجل النفط الايطالي انريكو ماتي الى ايران وهو العمل الذي ازعج الاحتكارات النفطية الانكلو ـ اميركية . كذلك استفاد شاه ايران في معركته النفطية مع البلدان المستهلكة من حرب تشرين ١٩٧٣ التي كانت السبب المباشر في الرفع الاسطوري للاسعار .

وقد أكد الشاه ، رغم نبرته العالية ، على انه مستعد في النهاية لمثل هذا الانضباط ، اذ تخلى عن ادعاءاته حول «ايرانية» البحرين لصالح ترتيبات خليجية منحتها الامبريالية أولويتها السياسية والاستراتيجية آنذاك .

هذه الميزة الايرانية (العنصرية الرسمية) هي ميزة لصالح ايران على السعودية والاقطار العربية الرجعية الاخرى . اذ تجعل الاولى اكثر قدرة على الفكاك من الولاء القومي ، بل وفي الحدود الدينية نفسها يتكفل الشاه باظهار الشيعية كتعبير اسلامي عن الحضارة الفارسية وكحلقة تتصل بالزرادشتية اكثر مما تتصل بالقرآن .

ولكن ذلك كله لا يغني اميركيا عن ضرورة الاهتمام الفائق بايران . فالدور الذي هيء له الشاه يستدعي توفير الاسس الصلبة لادائه ، من نوع التركيز على ضرورة «التحديث» والاتجاه «الليبرالي» او توكيدات الكونغرس عام ١٩٧٥ حول حيوية المزيد من التواجد الاميركي : فاذا كان ايغال ايران في الاغتراب عن المنطقة هدفا بذاته فالمطلوب هو إحداث اوسع اختراق للبنى التقليدية الثقافية والايديولوجية والروحية بما هي بنى توحيدية ومتعارضة مع الغرب (والتركيز نفسه هو ما نجده في السعودية حيث لا يعني ايلاء الاولوية لايران اختزالا لها) .

لقد انتقل الاشتباك بين حركة التحرر العربية وايران الى مرحلة مباشرة وساخنة مع ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق التي انهت العهد الملكي ونقلت التحدي الجمهوري التحرري الى حدود ايران نفسها .

مذ ذاك اهتمت ايران بالقانون المزدوج لدورها في المنطقة : من جهة استقواء بالاحلاف الاجنبية واسرائيل على الموجة التي اطلقتها الناصرية ، ومن جهة اخرى مراهنة على نقل عوامل التجزئة والتفتيت الى العراق الذي يعج بالاقليات الدينية والقومية . ومنذ ذلك الحين باشرت ايران محاولة استثارة

الشيعة في العراق ضد «الانظمة السنية» بحجة العلاقات التي تجمع الشيعية العراقية الى الشيعية الايرانية وهي علاقة لـم تسترع قبلا اي اهتمام من الشاه ، كما وعملت ايران الشاهنشاهية على استغلال التوق الوطني والديمقراطي الكردي الذي تعرض في بلادها وعلى يدها لاشرس عمليات القهر والقمع والتنكيل .

طبعا كان الشاه «الذكي» يكشف ان بمقدوره ان يكون شيعيا كما ان بمقدوره ان يكون زرادشتيا ، وبمقدوره ايضا ان يتعاطف مع حقوق الاكراد كما بمقدوره ان يقمع الاكراد انفسهم . والذي سمح له ان يظهر على هذا المظهر من الزئبقية ــ التي ساهمت في اكسابه شهرة الذكاء ــ هو ان حركة التحرر العربية لم تكن اجتماعيا وايديولوجيا على مستوى من الجذرية التي هي وحدها قادرة على سد مسام الاختراق والابتزاز من قبل التحالف الامبريالي ــ الاسرائيلي ــ الايراني .

ومع نشوء المقاومة الفلسطينية اصبحالاشتباك اكثر مباشرة، ليس فقط لان المقاومة قد استفزت الامبريالية وانظمتها التابعة في الشرق الاوسط ، بل ايضا لانها تحولت الى نموذج من النماذج التي اعتمدها الثوريون الايرانيون ، فالذين قدموا للتدريب في مخيماتها واتصلوا بما تطرحه من افكار حول «حرب الشعب طويلة الامد» كانوا في مقدمة الذين باشروا الكفاح المسلح في ايران . ومعروف ان احدى المنظمات الصغيرة الاولى من منظمات الكفاح المسلح هناك عرفت ب «مجموعة فلسطين» (٤) .

---

٤ ــ لقد وجدت في ايران بعض الشلل اليسارية ــ الدينية التي تقول بأن الوجه الرئيسي للتناقض الرئيسي مع الامبريالية هو في الصراع ضد =

لقد خلق جو النضال الفلسطيني حالة ايرانية تقرب من الصوفية الوطنية ، ومن خلال تلقف الدوائر الوطنية الدينية لذلك الجو بات معيارا لمحاكمة اكثر دقة ومحاصرة للشاه . فان تكون مع اسرائيل يعني ببساطة ان تكون «عدو الله» .

وليس صدفة بهذا المعنى ان تستعير منظمات الكفاح المسلح الايرانية تعبير «فدائيي» من الاسم الشعبي الشائع لحركة الكفاح المسلح الفلسطيني ـ «فدائيين» .

هذا يفسر لماذا لم يفوت الشاه فرصة للتنديد بالمقاومة الفلسطينية حتى ان وزير اعلامه في حكومة جعفر امامي ، داريوس هومايون لم يجد قبل اشهر من يتهمه باثارة «اعمال الشغب في ايران» سوى منظمة التحرير الفلسطينية .

لقد انتصبت في وجه الشاه اسلامية فوق قومية تبحث موضوعيا عن التوحيد النضالي بين الايرانيين والعرب ، وشكل دعم المقاومة الفلسطينية ضد دولة غاصبة «يهودية معادية للاسلام» فرصة نموذجية لمحاربة فارسية قومية دون اسلامية.

ذلك الاسلام التوحيدي كان من موقعه هذا لا يحاكم الشاه على موقفه من اسرائيل فحسب ، بل ايضا على موقفه من الحكام العرب المتعاونين مع اسرائيل ، مما عنى تقلصا متزايدا في المساحة السياسية لحركة الشاه الحرة ، فالعلاقة مع مصر

= اسرائيل حيث تتكثف تناقضات شعوب الشرق الاوسط الاسلامية مع الامبريالية ، وانه يستحيل حل اي تناقض من التناقضات الاخرى ما لم يحل هذا التناقض .

وقد مثلت هذه النقطة موضوعا من مواضيع السجال بين «منظمة مجاهدي الشعب» و«منظمة فدائيي الشعب» حيث اعتبرت الثانية ان الاولى تبالغ في تقدير انعكاس الصراع ضد اسرائيل على الوضع الايراني .

السادات لم تعد بعد «المبادرة» أقل احراجا من العلاقة مع اسرائيل (٥) .

لقد تحقق في أواخر الستينيات ظرف نموذجي لايران الشاهنشاهية كي تضع عداءها للعرب موضع التطبيق وبأقصى ما يكون ذلك .

ففي ١٩٦٨ اعلنت بريطانيا عن عزمها على الانسحاب من الخليج في عام ١٩٧١ ، وسار ذلك بموازاة القفزة التيعرفها عهد ريتشارد نيكسون في بيع الاسلحة للدول التي تؤهلها ظروفها وقدراتها على ان تصير امبرياليات فرعية بحيث «تقوم اميركا بمساعدة الدول التي تساعد نفسها» على حد تعبير نيكسون .

هذا التصور يعني في حالة ايران ان تبدأ الاستعداد الذي يخولها سد « فراغ» لا بد ان ينجم عن الانسحاب البريطاني من الخليج . وهكذا كان : فبينما لم تزد مجمل الميزانية العسكرية الايرانية في ١٩٦٤ ، عن ١٠ مليارات ريال ايراني قفزت هذه الميزانية الى ١٠٠ مليار ريال في ١٩٧٢ (٦) . وبهذا المعنى لم يعد

---

٥ ـ في ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٧ اصدر «علماء الدين المسلمون الشرفاء» بيانا الى «الامة الاسلامية» هاجموا فيه السادات بوصفه خائنا للدين والوطن .

٦ ـ يفسر مايكل كلير مجمل العوامل التي دعت الى اللقاء الموضوعي بين الرغبة الايرانية في التسلح والرغبة الاميركية في التسليح في عهد نيكسون فيشير الى النقاط التالية :

أ ـ في عهد نيكسون وصل الاحتجاج الداخلي على التورط الاميركي في الخارج حدا ما عاد بالامكان ممارسة التجاهل معه . وانضم الكونغرس الى هذا التيار الاحتجاجي العريض بشكل املى تخفيض الانفاق العسكري والتخطيط لسحب بعض القوات الاميركية من الخارج وخاصة آسيا (او سحب بعضها =

غريبا ان تكشف لجنة مجلس الشيوخ الاميركي عن وجود «تعهد

= فعلا) بهذا المعنى فتزويد الدول «الحليفة» بالسلاح يخفف من القلق الاميركي المترتب على الحاجة لتقليص القوات العسكرية في الخارج والحاجة في الآن نفسه لحماية تلك الانظمة .

ب ــ منذ ١٨٩٣ لم يعرف ميزان التجارة الخارجية الاميركي عجزا صافيا، وقد وقع العجز لاول مرة في تشرين الاول ١٩٧١ ، وفيما كانت المنافسة اليابانية والاوروبية تقلل من حظوظ السلع الاميركية المصنعة في اسواق الخارج ، بدت المعدات العسكرية وخاصة الجوية أقل تعرضا للمنافسة وأكثر قدرة على تعويض خسائر ميزان التجارة ، سيما وانها صادرات تميل الى الارتفاع بشكل متزايد .

ج ــ مع الانخفاض الذي طرأ على المخصصات الدفاعية المتعلقة بفيتنام ، حيث باتت حربها في بداية السبعينيات على وشك الانتهاء ، تم تخفيض العديد من العقود بين شركات الاسلحة الاميركية وبين البنتاغون ، وترتب على هذا فقدان الآلاف من العمال المصروفين لاعمالهم .

د ــ حتى ١٩٦٥ ظلت مبيعات السلاح الاميركي الخارجية لا تشكل الا القليل القليل من برنامج المساعدة العسكرية الاميركية ومذاك بدأت تتزايد هذه الحصة حتى بلغت في عام ١٩٧٤ ثمانية أضعاف ما تضمنه ذلك البرنامج ، وقد ارتبط التزايد بتمنع الكونغرس عن التصويت لصالح المزيد من الهبات والمنح من خلال البرنامج ، مما استدعى لسد هذه الثغرة توسيع مبيعات السلاح .

هـ ــ ارتفعت كلفة التحسينات والتطويرات الفنية على السلاح مع ما يعنيه ذلك من كلفة هندسة الانتاج والابحاث الخ . وكان اتجاه تحميل بعض الاكلاف المتصاعدة لـ «الحلفاء» اتجاها طبيعيا .

و ــ اما بالنسبة لبلد بترولي كايران (وخصوصا بعد عام ١٩٧٣) فقد نشأ تخوف غربي من تمركز الدولارات التي تعود اليها والى باقي البلدان البترولية مقابل بترولها، والولايات المتحدة تتخوف من ان تقوم هذه البلدان بطرح دولاراتها =

سري قدمه نيكسون وكيسنجر في عام ١٩٧٢ مؤداه ان الولايات المتحدة ستبيع لايران كل ما ترغبه من اسلحة تقليدية» .

بطبيعة الحال لا تستلزم منطقة الخليج كل هـذا التكديس العسكري الذي يقوم فهمه بالاساس على قاعدة دور تلعبه المؤسسة العسكرية ضمن المجتمع الايراني ، ولكن الدور الامبريالي الفرعي كمشروع انعزالي لا ينفصل عن دور المشروع الانعزالي في الداخل، حيث تبرز العسكرة بوصفها بديلا عن العقلانية الاجتماعية .

في هذا الاطار الفت ايران عام ١٩٦٩ ، ومن جانب واحـد وخلافا للقوانين والاعراف الدولية ، معاهدة عام ١٩٣٧ حول الحدود العراقية ـ الايرانية والتي هي اقرار لبروتوكول عـــام

= بشكل مفاجىء في الاسواق بما يهدد السوق النقدية الدولية ، في حين ان انفاق تلك الدولارات على التسليح يعيدها الى خزائن الغرب وخصوصا اميركا.

ز ـ يضاف الى ذلك عامل يتمتع بشيء من الثبات وهو ان بيع السلاح يزيد من التبعية الاقتصادية لدى الشاري لاضطراره الى شراء باقي اللوازم (اعتدة ، ذخائر الخ) والى فتح مجالات اخرى لرأس المال الغربي (شق طرقات الخ) . فمثلا : لان ايران «رغبت في تحسين شبكة مواصلاتها العسكرية» على حد قول توماس ريد مدير مكتب المواصلات في وزارة الدفاع الاميركية ـ فقد وضع الخبراء الحكوميون الاميركان مسودة خطة لتزويد ايران بنظام مواصلات جديد يمكن ان تبلغ نفقاته خمسة مليارات دولار ، ناهيك بأن مثل هذه المشاريـــع توثق معرفة واشنطن بالطبيعة الجغرافية للبلاد وطبائع اهلها والى ما هنالك من عوامل هامة اخرى .

ح ـ كذلك ثمة عامل اجتماعي ـ ايديولوجي يتمتع بثبات هو الآخر ، اذ يؤدي ارسال الخبراء العسكريين الى طهران وارسال الضباط الايرانيين للتدرب في واشنطن الى اتصال بشري يصدر «طريقة الحياة الاميركيـــة» الى النخب العسكرية ذات الثقل الستراتيجي في العالم الثالث ويعزز اتجاهات التغرب والعزلة .

١٩١٣ الموقع في القسطنطينية ، وازداد تدهـــور العلاقات بين البلدين بعد توقيع معاهدة الصداقة السوفياتية العراقية في ٩ نيسان ١٩٧٢ .

كذلك احتلت ايران ، كما هو معروف ، الجزر الثلاث فـــي الخليج مستفيدة من مجمل الظروف : الانسحاب البريطاني ، الاهتمام الاميركي بتنشيط دورها ، هزيمة العرب في ١٩٦٧ ومن ثم وفاة جمال عبد الناصر وهزيمة النهج الناصري في السياسة المصرية .

وعملت بجهد على دعم السلطان قابوس في مواجهة ثـــورة ظفار ، كما وشكلت تحديا فعليا مطروحا على جمهورية اليمــن الديمقراطية القريبة من السوفيات .

حتى الان لم يخطىء القانون : كل صعود وانتفاخ في الدور الايراني هو هبوط وضمور في الدور العربـــي تحت تأثـــير هزيمة ١٩٦٧ .

ومع حرب تشرين نشأت عناصر جعلت العلاقة العربيـــة الايرانية اكثر تعقيدا ، ذلك ان اتجاه المنطقة عموما بقيادة مصر والسعودية نحو الولايات المتحدة حرر حكام ايران من الكابوس الوطني والتحرري ، وضبط التناقض بحيث حوّله الى تعارض بين السياستين الايرانية والسعودية ضمن التحالف الغربـــي انعام .

لقد وضعت ايران كل جهودها وراء سياســـة السادات واقامت مشاريع اقتصادية مشتركة وابدت استعدادها لتعويض اسرائيل عن النفط الذي يمكن ان تخسره من جراء انسحابها من الاراضي المصرية والاراضي الفلسطينية التي كانت قبل ١٩٦٧ واقعة تحت الادارة المصرية .

ومع رحلة السادات الى تل ابيب ظهرت السياسة الايرانية بوصفها ذات استعداد للمضي مع المشروع الساداتي بشكل يفوق

الاستعداد السعودي (٧) :

● فالسعودية التي ارتكبت الاثم الاول في دفع السادات الى أحضان كيسنجر وجدت نفسها بعد المبادرة في حالة من الحرج اذ ان دورها الرجعي لا يمكن لعبه الا على اساس اتفاق جميع الاطراف على حد ادنى لا يخل به اتجاه وطني كالاتجاه الناصري او اتجاه ذوباني يلغي «الوساطة» كالاتجاه الساداتي .

● اما ايران الشاهنشاهية فقد قدم الخروج الساداتي الكامل عن العرب ازدهارا لما تمثله هي على المستويين السياسي والايديولوجي وفي هذا الاطار راج الحديث بعد زيارة السادات لتل ابيب عن محور اقليمي يستبعد السعودية وتدفع السعودية جزءا كبيرا من كلفته .

كذلك ثمة بعد آخر هام لدور ايران في تمرير السياسة الساداتية : فاذا كان اللقاء السوري ـ العراقي هو الشرط الضروري المسبق لموازنة الثقل المصري ، واذا كان هذا اللقاء هو القناة الرسمية الوحيدة التي من خلالها يمكن ان تتدخل وتصب جهود الاقطار العربية والدولية في «ازمة الشرق الاوسط» ، فان بوسع ايران ان تمارس دورا في محاولة تعطيل هذا اللقاء عن طريق الضغط على العراق... وليس عديم الدلالة في هذا المجال ان اللقاء السوري ـ العراقي تم بعد ان تأكد للجميع حجم التردي الذي وصل اليه الوضع الرسمي الايراني تحت تأثير التحركات الشعبية الاخيرة ـ الراهنة .

ولئن بدأت ايران منذ ١٩٦٨ تمارس دورا عربيا واضحا فهي

---

٧ ـ حتى لو أدى ذلك الى تعارضات ايرانية ـ اسرائيلية لا تختلف كثيرا عن التعارضات التي يمكن ان تنشأ ضمن عملية التسوية بين الولايات المتحدة واسرائيل .

منذ ١٩٧٣ تمارس دورا قاريا واضحا مسلحة بعائدات النفط العاتية : تتدخل في قرن افريقيا ، تدعو الى حلف اقتصادي ـ عسكري مع البلدان المطلة على المحيط الهندي ، تشارك في دعم الاقتصاد الزائيري الخ . وكان يبدو على الدوام انها والسعودية تتسابقان على تحسين الموقع التفاوضي تجاه الولايات المتحدة .

لكن الغرب على ما يبدو يعيد النظر ببعض حساباته على ضوء الاحداث الشعبية في ايران والتي كشفت ان العملاق الكبير في الخارج يعاني من مشاكل جدية داخل بيته .

هذا لا يعني بالضرورة ان الغرب يتجه لتسليم السعودية ناصية القيادة . فمؤتمر بغداد قد كشف ان السعودية تقف في المحطة الوسطى بين مصر واقطار «الصمود والتصدي» وانها لا زالت تراهن على تسوية عشائرية ما تمنع اتجاه تلك الاقطار نحو التجذر وتقنع السادات بالعودة الى الحظيرة السعودية .

مثل ذلك الاتجاه لا يغري الغرب بالتأكيد اذ يبدو ان الحد الادنى السياسي الذي قدمه السادات اكثر من الحد الاقصى السعودي (رغم ان احدا لا يشك بالولاء السعودي وخصوصا على جبهة النفط) .

في المقابل يبدو ان الهم الغربي الاساسي والاول هو انجاح السياسة الساداتية. فالرئيس كارتر قد وضع كل رصيده وراء كامب ديفيد وجاءت أحداث ايران لتعجل التوصل الى نجاح ما، بحيث لا يجد «الحلفاء» انفسهم يعانون من المتاعب دفعة واحدة.

لكن الاهتمام بمصر السادات يعني في وجه من وجوهه ان الخيار المطروح على الامبريالية والذي له الاولوية حتى الان هو خيار الامعان في التجزئة وليس على الارجح خيار التشكيلات الكبرى القومية التي تدور في فلك الامبريالية (حالة سعودية معممة سياسيا) .

وما يدفع الى قول كهذا ان المعادل العربي لسياسة الانعزال الساداتي هو ترك المنطقة كمجموعة من الكيانات والعشائر

والقبائل والطوائف تواجه قدرها ، من دون مصر ، اي من دون عصبها التوحيدي الذي يُوجه الصراع القومي ضد اسرائيل .

في هذا المناخ تبدو الشاهنشاهية الايرانية حالة نموذجية حتى لو زال الشاه وفرضت بدائل اميركية اخرى تستطيع قطع الطريق على الحركة الشعبية الايرانية .

واذا صحت هذه الفرضية يصبح السؤال : هل تتم «عقلنة» السياسة الايرانية بحيث يوضع الجيش الايراني وجها لوجه امام هدفه «الخارجي» في حماية التجزئة المقبلة ويعطي الكومبرادور فرصته التاريخية في الداخل ؟ ام يتم التعاطي مع ايران بوصفها مجرد حلقة في المنطقة يصح عليها ما يصح على غيرها بحيث تدفع هي ايضا كلفة التجزئة وتحتكر اسرائيل وحدها دور القمع الاقليمي ؟

الفصل العاشر

جذور الوعي الديني السياسي(*)

على مدى تسعة اشهر ، تحولت ايران الى مسرح صدامي دموي . فالتظاهرات لا تنتهي حتى تبدأ ، والشوارع لا تفرغ حتى تمتلىء . وبدا ، في شيء من الرمز ، ان وضع الشاه وصل الى حد من الكارثة بات معه الزلزال معبر «الخلاص» الوحيد .

وانتصبت المسألة الدينية ، عبر «حركة رجال الدين» ، بوصفها المسألة الابرز في الحالة الايرانية . فالشيعية الايرانية

(*) هذا المقال الذي نشر في «شؤون فلسطينية» هو محاولة استخلاص عام لما ورد في المقالات السابقة .

هي السنية العربية ، من حيث ان الاثنتين لعبتا الدور المركزي في الحضارتين ، والتطابق مع الذاتين الوطنيتين .

من هذا الموقع ، وجدت الشيعية الايرانية ان الامبريالية تطلب رأسها في الدرجة الاولى ، وان كل خطوة في تقدم مشروعها هي خطوة اكبر في تقهقر الشيعية الوطنية .

والداء نفسه ، الذي اصاب السلطنة العثمانية ، اصاب ايران . ففي ١٨٢٨ هزمت السلطنة على يد روسيا ، وحصلت الاخيرة بفعل انتصارها على تنازلات استراتيجية وامتيازات اقتصادية عرفت بمعاهدة تركمانشاي .

كانت روسيا القيصرية تضغط من الشمال لاذلال ايران وابتزازها ، وكانت بريطانيا تضغط من مواقعها المبكرة في الخليج العربي جنوبي ايران للهدف نفسه . فإيران في العين البريطانية احدى الحلقات الاساسية في الطريق الى الهند ، وحملة نابوليون الى مصر والشرق نبهت بريطانيا الى جدية المخاطر التي تتهدد الطريق على يد فرنسا .

في هذا المناخ تسللت الثقافة الغربية الى ايران ، وبدأ التأسيس للاوربة ، وفي الوقت نفسه بدأت الارساليات البروتستنتينية تتوافد على البلاد ، معششة بين الاقليات ، مروجة ثقافة مؤداها ان على المسلمين ان يتحولوا عن دينهم «المعارض للتطور» ، ويأخذوا بـ «الاخلاق البروتستنتينية» الرافعة الايديولوجية للرأسمالية .

وبين خطرين ، احلاهما مر ، عاشت ايران : خطر روسي في الشمال يدافع عن سلطة تحرس التخلف والطغيان ، وخطر بريطاني في الجنوب بدأ يغير خطة تعاطيه مع البلاد في مطلع القرن العشرين ، وخصوصا بعد قيام ثورة اوكتوبر البلشفية عام ١٩١٧ .

فالبريطانيون كانوا قبل ذلك التاريخ يدعمون سلطات المناطق

المحلية على حساب السلطة المركزية ، ويعقدون «اتفاقات» مع زعيم قبيلة البختياري ، والشيخ خزعل شيخ المحمرة، وغيرهما، للحصول على امتيازات نفطية في «اراضي» هؤلاء الزعماء ، متجاهلين بالكامل سلطة «مركزية» يدعمها الروس .

اما بعد ١٩١٧ فقد اخذ البريطانيون دور القياصرة .

وفي مطالع القرن التقت مصلحتان :

ـ مصلحة البريطانيين في تحوير البنى الاقتصادية والسياسية ، بحيث تتسع للدخول الامبريالي الموسع ، على قاعدة العلاقات النفطية التي أرساها «دارسي» عام ١٩٠١ ، فبدا البريطانيون مدافعين عن «تقدم» ايران ، وتوجهها توجها بورجوازيا ديمقراطيا دستوريا (!) ينجر اليه تجار المدن الوسطاء الذين ارتبطوا بالمصالح البريطانية في القرن التاسع عشر .

ـ ومصلحة قطاعات واسعة من الايرانيين ، تأثر مثقفوها ورجال دينها بانتصار اليابان (الآسيوية) على روسيا (الاوروبية)، وثورة البوكسرز الصينية ، وتحركات مصر الوطنية ، وبنسبة اضأل : ثورة ١٩٠٥ الروسية .

وقام ما عرف بالثورة الدستورية او «المشروطية» في عامي ١٩٠٥ و١٩٠٦ ، والتي انتهت بانتصارات ، أهمها : انتزاع الدستور الذي لا زالت المعارضة الراهنة تطالب به .

وزحف القائد القوزاقي لياشوف على طهران اوقف الثورة، وحراسة «الآسيوية» الايرانية التي تبقي البلاد ضمن الفلك الروسي ، بدل الاتجاه الدستوري الذي يغرب ايران ، ويفتح كل ابوابها للبريطانيين .

اذن ، كان الصراع الداخلي محكوما بتوازن القوى بين انجارتين العظميين ، وفي ١٩٠٧ تم تقسيم ايران الى ثلاث مناطق نفوذ : شمالية ، تحت السيطرة الروسية ، وجنوبية تحت السيطرة البريطانية . وبينهما منطقة محايدة «ايرانية» .

لكن النجم البريطاني كان في صعود ، وكان النجم الروسي يهبط . يزيد في ذلك ان القيصرية لم تمتلك اي مشروع داخلي لايران ، وهذا ما جعل جميع مسام الجسد الايراني تتفتح على النفوذ البريطاني ، ومحموله الثقافي المتضارب مع الثقافة الوطنية المشبعة بالوعي الديني .

وسيطر البريطانيون (والاميركان) على اقتصاديات البلاد ، وجيء على التتالي ، بمستشارين اميركيين ، هما شومستر وميلسبورغ ليمسكا بمالية ايران ، فأنشئت على يد الاول وزارة للمال ، وأرسى الثاني أسس البنية التحتية للوافد الامبريالي من الغرب .

كل تلك العوامل جعلت صدمة اوروبا على مسلمي ايران صدمة عاصفة . فقد تحولت بلادهم تحت وطأة «الثورة الدستورية» الى مزرعة كاملة للاقتصاد الغربي ، ومجمع لانتاج واعادة انتاج الثقافة الغربية ، التي تأتي الى المستعمرات وهي واقفة على رأسها .

ضاعف ذلك امران ، أولهما ان ادخال الجيب الراسمالوي في الاقتصاد الوطني قاد الى خراب، دفع ثمنه السكان المرتبطون باقتصاد الحرف ، والبازار (الحي الصغير) ، وهم الذين يسكنهم الوعي الديني والثقافة الوطنية . والثاني ، ان الذين استفادوا من تضخم هذا الجيب هم الوسطاء من ابناء الاقليات غير المسلمة ، اي اليهودية والمسيحية والزرادشتية والبهائية .

وزاد الامر سوءا صعود رضا خان الى السلطة عام ١٩٢١ ، بدعم البريطانيين، وقد انعكس في صعودهتغير طال الستراتيجية البريطانية في التعاطي مع ايران :

قبل ثورة ١٩١٧ الروسية ، كان مطلوبا من ايران ، كما رأينا ، ان تبقى دويلات صغرى تستحيل على التوحيد المركزي، وعبرت عن ذلك «الثورة الدستورية» ، التي حملت بعض نوازع الاستقلال في الاطراف .

اما بعد ثورة ١٩١٧ ، فأمسى الهاجس انشاء «سد منيع في وجه البلشفية» ، ودعم سلطة مركزية ، تقوم بتوحيد قسري ، وتنهض على عنصرية فارسية تجد حاضرها في الارتباط بالغرب.

وفي تفكيك العناصر المكونة لتلك الدولة ، نقع على العناصر التي شكلت الوعي الديني السياسي المعارض :

● فإيران تتألف من عدد لا يحصى من الشعوب ، يشكل الفرس ٤٠ بالمئة منها ، وتتشكل الـ ٦٠ بالمئة الباقية من أكراد وتركمان وأتراك وعرب وبلوخستانيين وغيرهم ، ومن بين مجمل الشعوب في ايران ، يمثل الشيعة ما يقارب ٩٠ بالمئة ، وعموم المسلمين ٩٥ بالمئة .

ومحاولة رضا شاه بناء وحدة قسرية مركزية فيها المواطن الفارسي المحظوظ ، والمواطن المحروم غير الفارسي ، جعلت الوعي الديني يقدم نموذجا عن الوحدوية الديمقراطية ، متقدما عن الوحدوية القسرية تحت العباءة القومية .

اذن ، وضعت الحالة الكونية للدين في تعارض مع عقدة التفوق القومية .

● وفي محاولة رضا شاه التمايز عن الشرق العربي والمسلم، واستكمالا لنهجه العنصري ، عمل على إحياء الثقافة الفارسية على حساب الاسلامية ، فبعث الزرادشتية ، وزين للشيعية على انها زرادشتية مؤسلمة .

فاقم ذلك تغريب ثقافي ، وان لم يبلغ شأو مصطفى كمال في تركيا ، فقد استطاع ان يساهم في عزلة الناس عن الدولة، والقيم التي تستهلكها ، والثقافات التي تدعو لتعميمها .

● وحاول رضا استئصال البنى والتنظيمات القبلية التي رآها معرقلات في وجه القومية الفارسية و«الدولة» التي تحاول التحديث ، وعمل على «تمدين» القبائل بالقوة ، ودفعها نحو الاستقرار الحضري بفظاظة تقترب من الوحشية .

وكان في هذا وذاك ، يجتث اساسا اقتصاديا ووعيا دينيا، فقامت في وجهه عصيانات قبلية عديدة اهمها عصيانات القواشقة .

وتوازت هذه العصيانات مع العصيانات التي اعلنتها القوميات المقهورة ، حيث نظر اليها هي ايضا كشعوب مجهزة بخصائص مشؤومة ، وقوميات محرومة من كل سمة ايجابية .

وكان النمو المتفاوت على قاعدة التبعية منذ عهد رضا يوسع الفوارق فيما بين المناطق ، بل فيما بين المدن . ففي ١٩٦٦ بلغت العاصمة طهران ستة أضعاف المدينة الثانية اصفهان !

وفي مقابل هجوم «الدولة» ، وهو هجوم يتذرع بالميول الرديئة المنسوبة للاسلام والشرق ، مثلت العجينة الاسلامية القاعدة الوحيدة المشتركة لخميرة الرد .

● اقام رضا «دولة» مستعارة من الغرب ، تتعارض في تكوينها ، وفي السياق الذي جاءت ضمنه ، مع المجتمع الايراني المسلم .

ترتب على ذلك ان انتقلت وظائف عديدة من يد الدين الى يد «الدولة» ، بل فرضت الثانية على الاول عددا من التفصيليات الغربية ، كأن يجبر رجل الدين على لبس الثياب الاوروبية ، ووضع القبعة فوق راسه ، وغير ذلك .

● لكن «دولة» رضا شاه لم تكن في حقيقتها غربية ، بل كانت دولة استبدادية ، استبدلت فيها البورجوازية بالحاكم الفرد ، فنمت البورجوازية نموا مشوها وهي محاطة بالتأخر السياسي الذي لا يعطيها اي موقع قدم تقريري ، ولا يتردد عن قمعها اذا اقتضى الامر ذلك .

هذه المواصفات الطغيانية الآسيوية ، جعلت الايراني ، الموعود بالدولة الديمقراطية الحديثة ، يقف مشدوها امام «الدولة» القائمة، كما يقف عامل ماركس امام السلعة العجائبية.

● وفتح رضا شاه ابواب ايران كلها للرساميل الاجنبية ،

الانجليزية فالاميركية ثم الالمانية . وكان واضحا ان انهيـــار الركائز الاقتصادية للمجتمع القديم المؤمن لا يتم لصالح بورجوازية ايرانية ما . فكل طرق المواصلات والسدود والجسور جـــاءت تخدم أغراض الرأسماليات الغربية ، والضرورات العسكرية التي لا تجد ايران فيها مصلحة لها ، وكل العالم الرأسمالي الجديد، من مدن تزدهر ، وموانىء تتسع ، جاء مدموغا بشمع المصالـح النفطية .

وهكذا دفع رضا الى الامام عملية الانهيار التي تطال الركائز الاجتماعية للايمان الديني ، وتطرح بانهيارها علامة استفهـــام كبيرة حول الدور الوظيفي لرجال الدين .

● وعملت سياسة العنصرية والتغريب على فصل الايرانيين عن باقي الشعوب الاسلامية ، التي شاركتهم الايمان ، وقسطا من التاريخ ، وهذا ما تفاقم بشكل واضح في عهد محمد رضا ، حين أنشئت دولة اسرائيل «صديقة» الفرس .

ان سياسة الشاه العربية مثلت واحدا من اكبر الاستفزازات للوعي الديني الوطني في ايران ، ونموذجي ، بهذا المعنى ، ان تشكل قضية فلسطين ركيزة محورية في الوعي الايراني المعارض، وان يطلق على احدى حركات الكفاح المسلح في فترة لاحقة اسم «مجموعة فلسطين» .

لقد أقصي رضا خان ونفي الى جنوب افريقيـــا عام ١٩٤١ بسبب ممالأته للنازيين في وجه الجارتين المتحالفتين روسيـــا وبريطانيا ، وجيء بابنه محمد رضا ليحافظ على نهج ، خانـــه ابوه ، في خدمة البريطانيين .

واستمر محمد رضا محافظا على «دولة» ابيه واحتضـــان الثقافة الفارسية «المتفوقة» ، حتى كانت تجربة الدكتور مصدق الذي أمم النفط الايراني .

لقد وقف الشعب ، بمن فيه رجال الديـــن . الى جانب

مصدق ، وأعطاه كل زخم مطلوب ، بل ان حركة «فدائيين اسلام» الدينية التي تأسست عام ١٩٤٦ ، مهدت لتفجير معركة التأميم والديمقراطية عن طريق اغتيال رئيس الحكومة الجنرال رازمارا عام ١٩٥١ ، الذي كان عدوا لدودا للتأميم والديمقراطية معا .

وقاد رجال الدين الوطنيين آية الله كاشاني ، الذي شارك مصدق في الشوط الاول من المعركة ، ثم تخلى عنه منحازا الى الشاه ، عاجزا عن انْ يجر وراءه ثلث القطاع الديني .

وحين انتهت معركة مصدق بقيام انقلاب زاهدي وكيرمت روزفلت ، أحس الشعب الايراني بقهر عميق منطو على مذلة أعمق ، فقد ضربت المحاولة التي انعقدت عليها قلوب الايرانيين، واستعيد الشاه ، الذي كان في الخارج ، بهمة وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية .

وقويت كل اتجاهات الالتحاق والتبعية والحضور الغربي :

ـ على المستوى الاقتصادي تشكل الكونسورتيوم النفطي ، الذي تهيمن عليه الرساميل الاميركية ، كمكافأة على تمويل الولايات المتحدة للانقلاب ، واشرافها عليه .

ـ وعلى المستوى السياسي ، اقتيدت ايران عام ١٩٥٥ الى الدخول في «حلف بغداد» الذي هندسه جون فوستر دالاس .

ـ وعلى المستوى العسكري ، بدأت تصب «المعونات» الاميركية لايران في طاحونة جيش لا وظيفة له سوى تعطيل العقلانية الاجتماعية في ايران ، واعطاء ركيزة للشاه من خارج المجتمع المدني .

كانت كلها تحديات ، تنضاف الى التحدي الاساسي الذي تنطوي عليه ، بنيويا ، شاهنشاهية ايران: فالاحتلال الاقتصادي عهّر البلد ، والانخراط في الاحلاف زاد الغربة عن المحيط الطبيعي ، والاهتمام الفائق بالجيش جعل حقل المفارقات يتسع، وهذا ما رأيناه على نحو مركب ، بعد حين ، عندما تحول الخليج

(المسلم) الى متنفس للاندفاع المدمر والغضب الدموي .

بسقوط مصدق ، سقط الجميع . فالجبهة الوطنية التي انشأها الزعيم الوطني منبرا لبورجوازية وطنية تريد ان تحكم ، وجدت نفسها تتحطم على يد الاجهزة البوليسية التي انشأها الاميركان ، اما حزب تودة الشيوعي فلم يقتلع فحسب ، بل هجر من البلاد ، واعلنت قيادته ، التي انتقلت الى اوروبا الشرقية ، انه بات يفتقر الى اي وجود في ايران .

لقد حملت تلك القوتان بذور العجز المبكر ، ليس فقط في الخلافات بينهما ، بل وهذا هو الاهم ، في قانون علاقتهما بالوضع الايراني :

● فمصدق رشح نفسه للمهمة التاريخية متكئا على بورجوازية وطنية ضعيفة ، ومراهنة برلمانية غير مقنعة في «العالم الثالث» ، وكان لخوفه من السقوط في «الخطأ» الثوري اثر اسوأ من الخطأ ، اي خطأ .

وهكذا انحصر في المدن التي تخوض حروبا «مدروسة» ، وانكفأ عن الارياف التي تخوض حروبا «مفتوحة» ، وكان شديد الحرص على محدودية الصراع ، فلم يسلح أتباعه ، ولا استشرف كيف تكون المعركة مع الولايات المتحدة الاميركية .

● وتوده ، الذي لعبت الاقليات دورا هاما في تكوينه ، وارتبط في نشأته ونموه وخطه بالستراتيجية السوفياتية ، لم يستطع ان يخترق المجتمع الاسلامي ويتمثل اشكالياته وقوانينه ، بل مارس الخضوع المتتالي لسهولة جوهرها الورع العمالي .

ولم يعكس المجتمع الايراني اي احتمال معقول للرؤيتين المتألقتين :

ـ فالبورجوازية الوطنية لم تأت الى الحلبة وهي منهكة سياسيا فقط . لقد كان هذا الانهاك السياسي مؤسسا على انهاك اقتصادي ، انتجه الدور المركزي للرساميل الاجنبية ،

والكومبرادور الايراني ، في اقتصاد البلاد .

ـ والبروليتاريا منهكة للسبب نفسه ، يزيد في السوء ان «ممثليها» السياسيين ارتبطوا بها وحدها ، كجيب رأسمالوي «مستورد» راهنوا على معارضته العمالية ، دون تماس يذكر ، مع الطبقات التي اجتثها بالكامل مجيء هذا الجيب .

وامتدت مرحلة القمع الاعمى من ١٩٥٣ الى ١٩٦٣ ، فحصل انكفاء عميق نحو الوعي الديني ، عززته قساوة شعر الجميع بآثارها ، وتحطم اصاب البدائل السياسية كافة .

هذا ما ترجم نفسه في انتفاضة ١٩٦٣ ، التي قادها الامام الخميني ، ضد مشروع «الاصلاح الزراعي» ، الذي عرف بـ «الثورة البيضاء» .

لقد كان الهدف الاساسي من اعلان تلك «الثورة» توسيع السوق امام الرأسمالية ، وتقديم الريف المغلق على مذبح النهب الامبريالي .

وبطبيعة الحال ، حصل بعض الفلاحين على الارض ، لكن ضعف هؤلاء خسروا الاراضي التي كانوا يملكونها .

وعلى المستوى الايديولوجي ، جرت محاولة فجة لادخال القيم الرأسمالية الى الريف ، وتثبيت ما هو متوافر منها في المدينة .

واستنفر خزان القيم الاسلامية من جديد : فهل يعقل ان الذي يمنع على الشعب حريته ، هو نفسه الذي يريد ان يحرر المرأة ؟

لقد وجد المصب الديني مجموعة من الروافد والتيارات التي تصب فيه . فإضافة الى القمع والتعطيل السياسيين الواسعين، جاء النزوح الهائل من المدن الى الارياف ، ومن المدن الى العاصمة طهران ، والاستفزاز الايديولوجي ممثلا بتحويل طهران الى حاضرة تعرض سلع العالم ، والاستفزاز المماثل المباشر في تعميم الاوربة في المدرسة والجامعة والمجتمع ، والمضي في جذب

الريف والقبائل جذبا وحشيا الى «الحضارة» .

لقد جاءت كل التيارات ترفد الوعي الديني .

وتأهب الشاه ، تيمنا بأبيه ، لانتزاع المزيد من الصلاحيات الموضوعة في يد الدين ، ونقلها الى يد البلاط ، وقد حقق قسطا هاما من عملية الانتزاع .

وقضي على إنتفاضة الخميني الذي نفي الى تركيا فالنجف في العراق ، فيما كان الوسط الثقافي يعتمل ببعض الجديد .

لقد التقت ثلاثة تيارات طلابية على ضرورة الكفاح المسلح :

ـ احد هذه التيارات يجد أصوله في «الجبهة الوطنية» التي انشأها مصدق . لقد اعتنق هذا التيار «الماركسية اللينينية»، وشق الجبهة ، تاركا في أرشيفها بعض الشخصيات الوطنية التي لم تنقطع عن اللعبة البرلمانية ، وأوهام المصدقية ، على قاعدة ما تبقى من ركام البورجوازية الوطنية .

ـ التيار الثاني يجد أصوله في حزب تودة الشيوعي ، فقد انشق عنه محتجا على انعدام الوجود الحزبي في الداخل من جهة ، وعلى العلاقات النامية بين الاتحاد السوفياتي وايران من جهة اخرى .

وبدأ هذا التيار يتأثر بالتجربة الفيتنامية ، والمقاومة الفلسطينية ، والظاهرة الغيفارية ، والثورة الثقافية الصينية .

ـ التيار الثالث يجد أصوله في الوسط الديني ، مستلهما اللوحات المضيئة في تراثه ، منذ «اضراب مدخنين» عام ١٨٩١ ، والذي الغى امتياز تبغ مبكر منح للانجليز ، حتى تجارب «فدائيين ايران» و«حركة تحرير ايران» ، اللتين تعرضتا لقمع مكثف على يد الشاه .

وكان هذا التيار الاخير منفتحا على الاشتراكية العلمية ، قابلا للحوار ، مؤمنا بصراع الطبقات وبشيء غير واضح التصور عن الملكية العامة لوسائل الانتاج .

على ان تجربة الكفاح المسلح التي بدأت عمليـــا عام ١٩٧١ لقيت مصيرا بائسا ، فهي لم تستطع ان تتعدى شرنقة ثقافيـة حكمت بها اصلا ، ولم تستطع ان تستنهض «الطبقة العاملـــة» التي راهن عليها معظم الماركسيين الجدد فيحركة الكفاح المسلح، ولم تستطع ان تخترق الارياف ، بعد فشل عملية سياهكـــل الفدائية الاولى .

وفيما كانت هذه التجربة تراكم العجز والفشل ، وينخرها داء الخلافات والانشقاقات والتصفيات والتصفيات المضادة ، كان الشاه يظهر كالباز الذي لا تطاله الايدي ، ولا تؤثر عليه : ها هو في المرحلة نفسها يتحول الى زعيم اقليمي ، يحل محل بريطانيا في الخليج ، ويستثمر «مبدأ نيكسون» للتحول الى امبرياليـــة فرعية تقوم بمهام الوكالة ، ويطمح للعب دور عربي مهدته لـــه هزيمة حزيران ، ثم وفاة عبد الناصر .

تصاحب انهيار الكفاح المسلح مع انهيار النموذج الصيني في عقول الثوريين الايرانيين . فبكين وموسكـــو ، على السواء ، تقيمان افضل العلاقات مـــع الشاه ، وتحبطان المستـــوى الايديولوجي لصالح مستوى الدولة السياسي .

هذا الفشل الآخر ، كان ايضا بمثابة مياه جديدة تصب في طاحونة الوعي الديني الوطني ، سيما وان انهيار النماذج اعطى العودة الى الذات زخما ودفعا جديدين .

وفاضت عائدات النفط الخرافية علـــى ايران في ١٩٧٣ و١٩٧٤ ، فشكلت مادة جديدة لتصليب دولة تقوم على القمـــع والديكتاتورية ، وتوسيع ثقافة اساسها الانفصال العميق عـــن التراث الوطني والديني .

ان تاريخ ايران الحديث يسير في خطين متضاربين لم يشهد اي بلد تضاربا كتضاربهما . فالقول ان «الازدهار ابو البؤس» ، لم ينطبق بهذا التجلي كما ينطبق في ايران :

فالازدهار ممثل بتراكم اسطـــوري في المال والخيرات ،

وبالتالي في السلاح وأدوات القهر والتعذيب ، انه في تصعيده الاقصى .

والبؤس ممثل في صفعة الغرب التي تحمل مشروع امحاء كامل على أصعدة الاقتصاد والسياسة والايديولوجيا ، وهو في تصعيده الاقصى ايضا .

وهنا شيء من الخصوصية الايرانية التي جعلت «الحقل الروحي» ، كما سماه سيكوتوري ، هو الحقل الذي يتصدى للرد ، فتركيا التي خضعت للتفريب ، لم تمتلك شيئا من نفط ايران ، والسعودية التي ماثلت ايران في النفط لا زالت تتمتع ببكارة ايديولوجية يعبر عنها موقع الوهابية في المجتمع السعودي .

قد يكون طبيعيا ان يشار الى ضعف في تكوين هذا الحقل الروحي ، او ان تعامل ردوده بشيء من الحذر المألوف . لكن المنطق قد فتح هذه المرة مخرجا واحدا ، وربما بدا هذا المخرج عند المتشائمين ، او الذين يحبون «الحكم» الثورية الجاهزة ، لغة ممتازة للاستعمال الطقسي فحسب .

هذا لا يجدي الا مع ضعاف الخيال . انه بالمقابل تحد لاكتشاف «السحر الشرقي» ، فمن هنا الثورة .

ملحق

بعض الاسئلة التي يطرحها مجيء حكومة عسكرية في ايران (*)

تشكيل حكومة عسكرية في ايران يحمل اسئلة كبيرة وكثيرة لمجمل القوى الاجتماعية والسياسية في البلد ، ويضعها اكثر من ذي قبل امام خيارات ضيقة ومحددة .

لكن قبل ان نرى الى هذه التحديات وطبيعتها ، لا بأس من تحديد عام لطبيعة المؤسسة العسكرية الايرانية ضمن تركيبـــة

---

١ ـ نشرت في السفير ١٩ـ١١ـ١٩٧٨ .

السلطة الشاهنشاهية :

فدون اي اغفال للدور «الامبريالي الفرعي» الذي أعدت ايران نفسها له ، يبقى ان رؤية دور الجيش ونموه وتحوله الى بالوعة للمال الايراني لا يجوز ان تقتصر على وظيفة الامبريالية الفرعية .

ـ بالمقابل تماما يأتي هذا الدور (الامبريالي الفرعي) مكملا لطبيعة الجيش الاساسية ضمن تركيبة السلطة .

ـ فقد اقام رضا شاه ومن بعده ابنه محمد رضا دولة طغيانية في جوهرها وعلاقاتها و«غربية» في طلائها الخارجي ، وكان هذا التكوين ينطوي على بداية كاملة يحل فيها «الفرد» محل «الطبقة» بحيث تستطيع الدولة الطغيانية (الفردية) على هذه القاعدة ان تحمل توحيدا مركزيا قسريا الى شعوب غير متجانسة قوميا واجتماعيا .

ـ وبروز المؤسسة العسكرية كان بهذا المعنى يشير على الدوام الى الاختلال العميق في الانتظام الاجتماعي ـ الطبقي او الى اللاعقلانية التي تتحكم بـ «الدول» الاستبدادية في «العالم الثالث» . فوزن هذا الجيش ينضاف الى وزن «الفرد» (الذي هو ابو الجيش وعاقد الصلات الحسنة ومانح الهبات لقياداته) ويتم الكشف العلني عنه في اللحظات الحاسمة .

ـ وبهذا الجيش يتم تعويض التعطيل الاجتماعي ، خصوصا وانه البنية الوحيدة التي تتمتع من جهة بصفة الحداثة والغربية وهي ما يطمح النظام الى التكني بها ، وتتمتع من جهة اخرى بسمة التوحيد «القومي» لشعوب متنافرة القوميات تقطعها الولاءات التي تتمرد على دولة طغيانية مركزية .

على هذا الاساس يمكن النظر الى الدور الذي اوكله الشاه للجيش في انجاز «الثورة البيضاء» ونقل «الاصلاح الزراعي» والمؤسسات البيروقراطية الى الريف : فالجيش هو البورجوازية المفقودة والتي لا تعمل الا لصالح الشاه دون اية مصالح خاصة

(حتى الان على الاقل) .

ومن هنا كان كل صعود في دور الجيش يعني تعطيلا لدور البورجوازية ، ولذا اصطدمت محاولة مصدق في انشاء «دولة برلمانية حديثة» تلعب فيها البورجوازية دورا قائدا بالمؤسسة العسكرية ، فاضطر الزعيم الوطني الى وضع وزارة الحربية تحت يده مباشرة والى اقصاء عدد كبير من العسكريين .

وما يصح على البورجوازية الوطنية يصح ايضا على الكومبرادور الذي (برغم ولائه للشاه وتحلقه حول الاميرة أشرف) يحمل تذمرا عميقا من الاختلال بين السياسي والاقتصادي . اذ بعد «الثورة» الزراعية بات الاقتصاد في يد الكومبرادور والشركات التي يمثلها دون ان يصبح لهذا الكومبرادور اي دور وازن على مستوى صناعة القرار السياسي .

وفي هذا نجد تفسير العديد من الامور : الاصرار الاميركي (سابقا) على ضرورة تحديث البنية السياسية ، التحاق بعض ممثلي الكومبرادور (حين يتعرض الشاه لضعف جدي) بالمعارضة ، وموقف علي اميني أبرز الامثلة في هذا المجال .

على اية حال فموقف الولايات المتحدة الاخير في تأييد الحكومة العسكرية يفسر في جانب منه ان تململات الكومبرادور لا يمكن الرهان عليها على الاقل من قبل الولايات المتحدة .

لكن يبقى ان تسليم الحكومة للجيش هو نقلة جديدة في تقديم الجيش على «المجتمع المدني» ، وخطوة جديدة نحو تعزيز اللاعقلانية السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وهذا يطرح بالضرورة اسئلة حادة حول موقف الطبقات والفئات الاجتماعية التي اثبتت منذ الخمسينيات ، وبنسب متفاوتة ، انها تنظر بقلق الى استبعادها السياسي ، وقد يكون الموقف الذي يتجذر لـ «الجبهة الوطنية» ورئيسها كريم سنجابي مؤشرا الى تطوير مواقف سياسية في موازاة الاتجاه الكاسح لتقديم الجيش وابرازه علنا على المسرح السياسي .

اما بالنسبة للمعارضة الدينية والشعبية فالسؤال الذي يطرح عليها هو من صنف آخر، خصوصا وان تشكيل الحكومة العسكرية ترافق مع تأييد اميركي صارم للشاه (وللحكومة العسكرية نفسها) وهذا اول موقف علني معادٍ لـ «الديمقراطية» تقفه حكومة كارتر التي ظلت تتحصن حتى الامس القريب بحرصها على «الحقوق الانسانية» .

اذن التطور الاخير يشير الى ان معركة اسقاط الشاه واقامة نظام وطني معادٍ للامبريالية لن تكون معركة سهلة ، فقد استنفر الجيش لقيامه بدوره التاريخي الذي ارتبط بنشأته : منذ المجيء برضا خان الى السلطة في العشرينيات حتى الاطاحة بمصدق في الخمسينيات .

هذا ليس بالجديد وليس بالامر الذي يحمل المفاجآت ، اذ هل يعقل في النهاية ان تتخلى الامبريالية بمثل هذه السهولة عن بلد كإيران ؟

لكن الجديد الذي يطرحه هذا الامر هو ان الاشكال العفوية في التضامن والموروثة عن علاقات الاحياء والحرف (البازار) لن تكون قادرة على مواجهة من هذا النوع ، فالمطلوب مرة اخرى ومن القيادة الدينية الجذرية بشكل خاص ، ايجاد شكل تنظيمي تصب فيه وتنتظم الجهود الشعبية العريضة المعادية للشاه والامبريالية الاميركية .

وتشكيل الحكومة العسكرية هو امتحان للقدرات القديمة ولاستعدادات الخروج بصيغ جديدة .

المراجع الاساسية

بالانجليزية :

— A. Banani : The modernisation of Iran 1921 - 1941.

— J. C. Hurewitz : Middle East Politics : The military dimension .

— F. Haliday : Arabia without Sultans .

— P. Avery : Modern Iran .

— E. G. Browne : The persian revolution of 1905 - 1909 .

— G. Lenczoushi : Russia and the west in Iran , 1918 - 1948 .

— R. W. Cottam : Nationalism in Iran .

— L. Binder : Iran, political development in a chan-ging Society .

— Political and social thought in the Contemporary middle East (edited by K. H. Karpat) .
— B. Nirumand : Iran, the new imperialism in action .
— Annual of Power and conflict 1974 - 1975 .
ـ التقارير الصادرة عن Amnesty international بين ١٩٦٩ و ١٩٧٦ .
ـ مجموعة اعداد من مجلتي MERIP و MEED .
ـ مجموعة منشورات وكتب وكراريس صادرة عن اطراف المعارضة .
ـ انسكلوبيديا اميريكانا .

بالعربية (ومنها ما هو مترجم) :

ـ رحلات السيد محسن الامين في لبنان والعراق وإيران ومصر والحجاز .
ـ ز. ي. هرشلاغ : مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط .
ـ عبد الله فهد النفيسي : دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث .
ـ الاممية الشيوعية لشعوب الشرق ـ المؤتمر الاول لشعوب الشرق ـ باكو .
ـ ماركس ـ انجلز : في الاستعمار .
ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ـ ج ١ .
ـ مكسيم رودنسون : الماركسية والعالم الاسلامي .
ـ جواد العطار : تاريخ البترول في الشرق الاوسط .
ـ «موقف الامام الخميني تجاه اسرائيل» (كراس) .

- غي دي بوشير : مفاتيح لاجل العالم الثالث .
- مجموعة أعداد من مجلة «دراسات عربية» .
- مجموعة منشورات وكتب وكراريس صادرة عن أطراف المعارضة .

الفهرس

دراسات سياسية
صادرة عن دار الطليعة

الامم المتحدة وموازين القوى المتحولة في الجمعية العامة
كميل قيصر داغر

كيسنغر وصراع الشرق الاوسط
د. سعد الدين ابراهيم

جمهورية مهاباد : الجمهورية الكردية في ايران ١٩٤٦
وليم ايغلتن الابن

سياسة كارتر ومنظرو «الحقبة السعودية»
د. صادق جلال العظم

زيارة السادات وبؤس السلام العادل
د. صادق جلال العظم

الصراع على ارض التسوية الاسرائيلية
١٩٧٣ – ١٩٧٨
محمود سويد

خط القتال والنضال وخط التسوية والتصفية
ناجي علوش

قضية لبنان الوطنية والديمقراطية
فواز طرابلسي

٢٥٠٠ / ٥٨٧